BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

كيف نقرأ التاريخ؟

صلاح فضل:

في هذه الأمسية من الحوار المكثف يشترك في منتدى الحوار أربعة أعلام كبار يقيمون خيمة الحوار فيما بينهم ثم ينصبونها معكم، في حوار مكثف ولست أدري هل هي مجرد صدفة حكيمة أم مفارقة من مفارقات التاريخ أن تكون هذه الندوة بعنوان "كيف نقرأ التاريخ" عقب المنتدى السابق "الملفات السرية للثورة المصرية" والذي احتد فيه النقاش بينكم حول قراءة التاريخ. لعلها حكمة المنتدى، وقراءة التاريخ في تقديري تطرح أسئلة عديدة أثير بإيجاز مركّز بعضًا منها، فأنواع القراءة عديدة، منها قراءة أيديولوجية وقراءة علمية وقراءة توثيقية، لكنها جميعًا تدعي البراءة وهي في حقيقتها مفعمة بالتحريف والإساءة لأنها مرتبطة بالوظيفة المخصصة لها، والسؤال الذي يطرح نفسه عندما يتحدث العلماء والمفكرون والفلاسفة والمؤرخون عن قراءة التاريخ هو: عن أي تاريخ نتحدث؟ عن التاريخ القديم أم التاريخ الحديث أم التاريخ المعاصر الساخن الذي مازال يلسع ألسنتنا ونحن نتحدث عنه؟ وهل نقرأه قراءة انتقائية نختار منها ما نشاء ونؤوله كما نهوى؟ أم هي علمية منظمة تعيد رسم صورته؟ ثم، وهذا هو الأهم، لماذا نقرأ التاريخ؟ لمجرد العلم أم لشيء أخطر من ذلك وأهم؟

في خبر صغير نشر في مجموعة من الصحف قيل إن مجموعة من الصحفيين والعلماء انتهوا إلى أن ارتفاع معدل أعمار البشر – إذ كان في المراحل الأولى لا يتجاوز العشرات الأولى من السنين – هو الذي أدى لتراكم الحضارة البشرية ببداية ما أطلقوا عليه عصر الجدات، وهو أن تعيش المرأة على وجه التحديد حتى تصبح جدة وأن تعطى فرصة لكي تروي لابنتها خبرتها وتجربتها. ببداية عصر الجدات، بدأت الحضارة الإنسانية، أي ببداية تراكم الخبرة والمعرفة والتجربة وتناقلها من جيل إلى جيل. إن الإنسان كائن تاريخي بالدرجة الأولى يختلف عن بقية الكائنات بأن له تاريخًا، لكن السؤال هو إلى أي حد يمكن أن يترك لهذا التاريخ أن يستعبده وأن يستبد برؤيته وأن

يحجب نظره وأن يمنعه من أن يطور تجربته وأن يمنعه من أن يتوجه لبناء مستقبله؟ كما أن التجربة أداة للمعرفة وللخبرة وقوة للإرادة، فغالبًا ما تكون قامعة لطاقة التجدد مانعة لإرادة التغير حائلة دون الإبداع، فكيف يمكن إذن أن نجمع بين خبرة الماضي وبين الإبداع في فكرنا للمستقبل؟ كيف يمكن ألا نقع أسرى للتاريخ وأن نستطيع تجاوزه مثلا عندما نلحظ استكانة الشعب المصري ورضوخه لأنواع السطوة والحكم؟ فهذا هو عهدنا به منذ الفراعنة، إذ لم يكن الشعب المصري وحده في تلك العصور التي بنى فيها تاريخًا أول للإنسانية هو الذي يخضع ويقدس الحكام، كانت بقية الشعوب تقدس الحيوانات أيضا لا الحكام فحسب، لكن التطور البشري لم يمنعهم من أن يتخلصوا من هذه النظرة، وأن يعاملوا الحكام كما يعاملون بعضهم البعض، وأن يفرضوا منطق المستقبل في قراءتهم للتاريخ وأن يغيروا وجه التاريخ.

من هنا في تقديري، أعتقد أن قراءة التاريخ مدعوة لأن تحرص على ألا تُحدث قطيعة معرفية بهذا التاريخ، بحيث نقرأه لكي لا نقع في حبائله، نقرأه لكي نغيره إلى مستقبل أفضل، وفي يقيني أن أستاذ الفلاسفة العالم الأستاذ محمود أمين العالم هو الذي يمكن أن يمهد لنا السؤال الفلسفي لقراءة التاريخ.

محمود أمين العالم :

اسمحوا لي أن أعترف لكم في البداية أن عنوان الندوة كان في البداية "تاريخية التاريخ"، إلا أن لجنة الفلسفة والديانات في المكتبة – بعد تداول هذا العنوان – رأت أنه عنوان غامض مجرد مما لا يشجع البعض – وخاصة من غير المتخصصين – على الحضور في هذه الندوة، ولهذا كان العنوان المعلن للندوة هو "كيف نقرأ التاريخ؟" على أنه على الرغم مما بين العنوانين من تداخل ضمني، إذ لا سبيل لقراءة التاريخ إلا في ضوء رؤية محددة له أي رؤية لطبيعته كتاريخ أي لتاريخيته كصفة تكوينية خاصة به، أقول ورغم هذا التداخل فإن هناك اختلافا وتمايزًا كبيرًا بين تاريخية التاريخ كواقع موضوعي متحقق بالضرورة وبين القراءة التي مهما ارتفع مستوى دقتها فإنها تتضمن بعدًا ذاتيًّا بمستوى أو بآخر، وبالتالي سينعكس هذا البعد الذاتي على قراءة هذا الواقع الموضوعي، فهل في مقدورنا منذ البداية أن نحدد منهجيًّا ما هي حقيقة التاريخ لكي نحسن تقييم القراءات المختلفة بعد ذلك حوله وعنه؟ أخشى أن تكون الإجابة على هذا السؤال كالإجابة عن ما هو النثر في إحدى مسرحيات موليير؟! لأن النثر هو ما نمارسه دائمًا ويوميًّا في تعاملنا وفي علاقتنا العامة بالآخرين، وكذلك التاريخ، هو حياتنا اليومية، سواء ما نمارسه من علاقات ونتلقاه من أخبار ومعلومات تتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل أو التوجه للمستقبل في مختلف شئون الحياة فضلا عن ما نتخذه من أشكال معينة من السلوك والاستجابات والمواقف المعنوية، هذا التاريخ هو ما يمكن أن نسميه

بالتاريخ الحي، التاريخ الممارس، التاريخ الكوني الذي يشكل النسيج العام للحياة والوجود في تجلياته عامة وتفاعلاته المادية والطبيعية في الحياة، كما تتداخل الظواهر الخاصة بالعامة، ويمتد الماضي في الحاضر إلى إمكانيات المستقبل وتتلاقى كل عناصر الطبيعة والوجود من مادية ونباتية وحيوانية وإنسانية.

خلاصة ما أردت قوله هو أن تاريخية التاريخ – كما تنتهي العديد من الكتابات التاريخية أو الخاصة بفلسفة التاريخ بوجه خاص – لا تقف عند حدود التاريخ الإنساني، وإنما تمتد للتاريخ الطبيعي والحيواني والكوني والذي يمثل الوعي الإنساني بظهوره ونضجه قيمة موضوعية إبداعية مميزة وكامنة ومجدِّدة ومتجددة داخل هذا البناء الكوني الشامل.

وتأسيسا على هذا، أرى أن الزمن أو الزمنية في هذه البنية التاريخية الكونية – وهي جوهر فيها – ليست هي أساس التاريخية كما يقال أحيانًا، ليس الزمن أساس التاريخية – في تقديري – وإنما التاريخية هي ثمرة التجليات الموضوعية المختلفة المتحققة في تشابكها وتفاعلها، ولهذا فالزمن على خلاف ما يقال ليس العلة الفاعلة في الوجود بل هو – على حد تعبير أرسطو – مقياس الحركة فيه لا أكثر، أو بتعبير آخر مقياس لإيقاع التحقق والتغير والنمو التي هي صفات أساسية للوجود في تجلياته المختلفة، إذ لو لم تكن هناك تجليات كونية من مادة نباتية وجامدة وحية وعاقلة مبدعة، وكان بالتالي ثمة خلاء سائد لما كان هناك زمن وبالتالي لما كانت هناك تاريخية بالضرورة، فالزمن والتاريخ هما ثمرة طبيعية لكونية الوجود ووجودية الوجود بما يتحقق بهما وفيهما من تجليات وتفاعلات وتناقضات وصراعات مختلفة ومتجددة، ولهذا يختلف الزمن باختلاف التجليات الكونية، فزمنية الأحداث الكونية المادية غير زمنية الأحداث النباتية والحيوانية والإنسانية بل النفسية والقيميَّة.

لهذا، فكل شيء في الوجود متزمنٌ بزمن وجوده الخاص وعلاقاته وتفاعلاته وتغيره وتجدده بمستوى أو بآخر، فليس ثمة زمن طولي خطي كوني متسق شامل أحادي الاتجاه منذ بداية البداية للنهاية، وليس ثمة بداية مطلقة أو نهاية مطلقة، كما تذهب بعض فلسفات التاريخ وإن بدت كذلك. ولهذا فليس هناك دورية أو ذرية تجزيئية منقطعة عن بعضها البعض في تاريخية التاريخ كما يذهب بعض المفكرين، فهي أزمنة مختلفة باختلاف ارتباطاتها وتفاعلاتها الخاصة والكونية في إطار زمنية عامة متصلة باتصال الوجود، ماديًّا كان هذا الوجود أو غير مادي في حركته وتفاعلاته المختلفة.

وهذا – في تقديري – ما يؤسس الوحدة الشاملة التي تشكل الوجود كما تشكل في الوقت نفسه التنوع الذي يعبر عن تجلياته المتغيرة المتجددة والمتناقضة في آن واحد. والتاريخ الإنساني الخاص غير معزول أو منفصل أو مستقل عن هذه التاريخية الكونية العامة مهما كانت حدود النسبة واختلافها ومساحتها، وإن كان يتميز عليها

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

بالوعي وبالتالي بإرادة الاختيار والفعل بما يرتفع إلى حد الإضافة الإبداعية أي الإضافة التاريخية الواعية للتاريخ العام نفسه سواء كانت الإضافة مادية أو معنوية. ولهذا فالقراءة الصحيحة للتاريخ – في تقديري – هي تلك التي تدرك واقع التجربة الإنسانية في شمولها وموضوعيتها في غير عزلة عن الرؤية العامة للتاريخ في تجلياتها المختلفة. على أن هذا القول بأن التاريخ حقيقة موضوعية شاملة مُعَضْوَنة متنامية بالوعي والفاعلية الإنسانية يتعارض في أغلب الكتابات التي لا تقر للتاريخ بهذه الموضوعية المتصلة والمتواصلة، بل تجعل التاريخ أقرب إلى المصادفات أو المفاجآت أو المغامرات الذاتية أو التلقائية المستقلة عن أي أساس موضوعي أو تجعله أحادي الاتجاه الآلي، ولهذا تنتهي إلى أن التاريخ يخرج عن أي دراسة علمية وموضوعية له، وتذهب إلى القول بأن التاريخ لا يصلح مجالا وموضوعا للبحث والمعرفة والمنهج العلمي خاصة، وإنما التعبير عنه يكون أقرب للكتابات الذاتية الأدبية والخيالية المنطلقة دون حدود وقواعد وضرورات موضوعية. ولا مجال في هذه الكلمة السريعة أن نذهب إلى متابعة العديد من التيارات الفكرية المختلفة والتي تتخذ موقفا من التاريخ الذي يند به عن أن يكون موضوعًا لدراسة علمية، وما أكثر من يقولون بأنه لا مجال للعلم في دراسة التاريخ.

والحق أن الخطأ – في تقديري – في هذه النظرة القاصرة لدراسة التاريخ لا يقتصر على رؤية التاريخ وحده وإنما يمتد كذلك للنظرة إلى العلم نفسه. وحسبي الإشارة السريعة إلى دراسة قديمة لي تناولت فيها هذا الموضوع، ففي خلاصة بحث قديم لي عن المصادفة في الفيزياء الحديثة كنت قد انتهيت منه في أوائل الخمسينيات، تبينت فيه أن المصادفة لا تتعارض مع الضرورة الموضوعية، بل هي في الواقع ليست إلا مظهرًا لتعقد الضرورات وتداخلها وتشابكها وتراكبها وتفاعلها بين ضرورات مختلفة مستقلة نسبيًّا بعضها عن بعض. وتأسيسا على هذا انتهيت إلى أن المصادفة ظاهرة موضوعية تقوم على أسس ضرورية رغم تعقد عناصرها وتعدد عواملها، ولهذا رحت أتساءل عن مدى صلاحية هذه النتيجة في تفسير الظواهر التاريخية تفسيرًا علميًّا خالصًا. فالتاريخ كما ذكرت في هذا البحث القديم ليس حركة عشوائية، إنما هو أحداث محكومة بأشكال متنوعة من الترابط والعليَّة والضرورة في مستوى أو آخر. حقًّا إن العليَّة التاريخية ليست هي العليَّة الميكانيكية التي يمكن أن تتكرر وأن تُجرى عليها التجارب لاختبار صحتها أو بطلانها، ليست هذه هي موضوعية التاريخ، كما أنها ليست العلة الغائية التي تتحرك أحداثها في خط مستقيم أحادي الاتجاه ومحدد الهدف مسبقًا، بل إن التاريخ هو محصلة لعوامل متداخلة متفاعلة متشابكة متناقضة من العلل والمصادفات، جغرافية كانت أو اقتصادية أو مصلحية أو تراثية أو روحية أو ثقافية.

ولهذا، تبينت أن مفهوم التاريخ يقترب من مفهوم المصادفة بهذا المعنى أي، المصادفة الموضوعية التي انتهى إليها البحث في مجال الفيزياء. فالتاريخ إذن ليس حدثًا خاليًا من الترابط والعلية والضرورة كما يقول الكثير من

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

المفكرين، بل هو حقيقة موضوعية تقترب من الحقائق العلمية الحديثة في مجالي الفيزياء والبيولوجي خاصة بل وفي الرياضة كذلك الآن تخطت الأبحاث العلمية منطقة المصادفة في الفيزياء إلى الفوضى في الرياضة أو ما يسمى قانون الفوضى. وليس هذا إلغاء للقانون العلمي، وإنما هي رؤية أخرى أقرب للبيولوجي لمعني التاريخ، بل هو حقيقة موضوعية تقترب من الحقائق العلمية الحديثة في مجال الكيمياء والبيولوجي خاصة. وأنها بإضافة الوعي الإنساني إلى الواقع الكوني عامة في أنحائه المادية والحية يصبح التاريخ إمكانية موضوعية للتنامي والإبداع إلى غير حد.

وهكذا تقترب بل تكاد تتماهى دراسة التاريخ بالدراسات العلمية مع اختلاف خصوصية موضوعاتها ومناهجها، بل يكاد التاريخ أن يكون نموذجا حيا لها برغم هذا الاختلاف، ولعل هذا ما جعل مفكرًا كبيرًا مثل ماركس أن يعد التاريخ علم العلوم جميعًا، ولعل الرؤية المادية الجدلية والمادية التاريخية أن تكون تجسيدًا منهجيًّا لهذه الرؤية العلمية التاريخية، ولكن ما أكثر ما تتحول للأسف في التطبيق بل تحولت بالفعل في بعض التجارب التاريخية إلى رؤية إطلاقية جامدة في الفكر والتطبيق على السواء مما يتناقض مع طبيعتها المنهجية. ولكن ما أكثر ما يتحول العلم نفسه كذلك في تجارب مواقف أخرى من اعتباره امتدادا نوعيًّا للتاريخ وتفتحًا واعيًّا إنسانيًّا موضوعيًّا، يتحول إلى عداء للتاريخ الإنساني. أليس هذا هو ما نشاهده اليوم في مسلك قوى سياسية واجتماعية تدعي العلم وصناعة التاريخ وهي تستخدم أرقى المنجزات العلمية في تدمير أرقي ما حققه الإنسان من منجزات تاريخية؟ لذلك، فإن المعنى الحقيقي والوعي الموضوعي للعلاقة الحميمة بين علمية التاريخ وتاريخية العلم جدير بأن يصبح من أسلحتنا الثقافية لمواجهة ما تتعرض له أمتنا العربية اليوم وحضارة العصر كله من أخطار بشعة بوسائل العلم وباسم التاريخ، يا للسخرية!

وهكذا يصبح فهمنا الموضوعي الصحيح للتاريخ واعيًا مناضلا تاريخيًّا دفاعًا عن الإنسان وتنمية لحضارته إلى غير حد.

صلاح فضل:

هذه هي البداية الفلسفية التي شرعها لنا الأستاذ محمود أمين العالم بصدقه وحماسه وموضوعيته وثباته على مبادئه، لم يتحدث كثيرًا عن حتمية التاريخ ولا عن جدليته إلا في النهاية، لكنه مزج هذا المزج العاشق بين مفهوم الصدفة في العلوم الطبيعية والمفاهيم التاريخية.

جمال حجر:

لن أتحدث من منظور فلسفي فلست بفيلسوف، وإنما سأحاول أن أضع تجربتي في دراسة التاريخ موضع المناقشة، وبالتالي فمنطلقاتي سوف تكون منطلقات منهجية واقعية بقدر ما أستطيع. سألني أحدهم وهل قراءة التاريخ تحتاج إلى ندوة؟ فتأملت السؤال من هول المفاجأة، ثم قلت أعتقد ذلك و لم أزد، وحين خلوت إلى نفسي قلت شكرا للقائمين على منتدى الحوار في مكتبة الإسكندرية أن نظموا هذه الندوة، وشكرا لهم مرة أخرى أنهم حرصوا على أن يعطوا السؤال حقه فحشدوا هذه الكوكبة من المعنيين بالأمر، لعلهم يضعون تصورا معينا للإجابة على السؤال.

الحق أنني أفهم أن المقصود بقراءة التاريخ هنا هو كيف نفهم التاريخ، وكيف نفسر التاريخ، وكيف نستوعبه، وكيف نعيه؟ ومن هنا فإننا لن نقرأ التاريخ بعيوننا ولا حتى بمشاعرنا وإنما نقرؤه بعقولنا. وإعمال العقل معناه إخضاع ما نقرأ لضوابط وقوانين المنهج العلمي من نقد وتحليل عبر مسافة آمنة بيننا وبين الحدث، ذلك أنه إذا كانت المسافة بالمعنى الجغرافي شرطا للرؤية، فإن المسافة الزمنية شرط أساسي للمعرفة التاريخية.

ولكن الأمر يتطلب تحديد بعض المفاهيم لكي نتمكن من التحاور بلغة مشتركة. أولها، أن الحدث التاريخي لابد أن يكون نتاج التفاعل بين عناصر ثلاثة: الإنسان والمكان والزمان. وثانيها، أن الحدث التاريخي ليس تاريخا وإنما هو أحد عناصر ثلاثة تنتج التاريخ في النهاية هي الحدث والمنهج والمؤرخ. التاريخ إذن هو نتاج عمل المؤرخ، وليس كل من يكتب عن الماضي مؤرخا حتى وإن منح اللقب. وثالثها، أن التعامل مع الحدث لابد أن يجري في سياق عام لا مجتزأ ولا منعزل. وإذا ما تحققت تلك الشروط، فإن ما يراه المؤرخ قد يصبح تاريخا.

التاريخ إذن نشاط عقلي يقوم على أرض من الحقائق الواقعية، والفلاسفة هم أقدر الناس على تحديد مفهوم التاريخ، وهم أكثر استعدادا للكلام عما يفعله المؤرخون، ولعل المؤرخين لا يغضبون مني حين أقول هذا. فالتاريخ علم شامل ومتنوع ومعقد ومركب يدعو دائما إلى التساؤل، التاريخ شأنه شأن البشر الذين صنعوه والبشر الذين يحاولون قراءته، محير للغاية، والوصول إلى اليقين فيه مستبعد، التاريخ هو طريقة للنظر إلى التجربة الإنسانية، فمن منا يستطيع الإلمام بأطراف هذه التجربة على اتساعها، وإذا كنا مختلفين حول رؤيتنا للتاريخ، فنحن بالتأكيد مختلفون حول قراءتنا له.

كلمة التاريخ في حد ذاتها غير محددة تماما لأنها متعددة المعاني، فهي تعني الإعلان بالوقت، تعني تدوين الحوادث المهمة، تعني التدليل على مسيرة البشرية، وعادة ما نردد عبارات مثل "التاريخ شاهد على كل العصور"، أو "نحن نصنع التاريخ"، أو "هذا حدث يسجله التاريخ". وكلمة "تاريخ" تعني دراسة المسيرة الحضارية للبشرية في محاولة للكشف عن غموض الماضي، وهذا الدور تقوم به أقسام التاريخ في كليات الآداب. وكلمة "تاريخ" تعني كذلك دراسة حركة تدوين التاريخ أي دراسة جهد المؤرخين المتخصصين في كتابة التاريخ. والكلمة المناظرة لكلمة "تاريخ" في اللغات الأوروبية الحديثة هي History في الإنجليزية مثلا تعود إلى الأصل اليوناني Historia وهي تعني الاستفسار أو التقصي، والاستفسار المقصود هو عن الظواهر التي يدركها التغير، والتاريخ معنيّ في المقام الأول بدراسة ظواهر التغير في المجتمعات، وحالة الجمود في أي مجتمع تنهي دور المؤرخ تماما.

هذه المعاني المتعددة للمصطلح والكلمة تجعل مهمة قارئ التاريخ عند نفس القدر من الصعوبة التي تواجه المؤرخ نفسه، ويرى ابن خلدون أن فهم التاريخ ضرورة لفهم الإنسان، وفهم الإنسان يقوده إلى معرفة الخالق، ومعرفة الخالق هي أعلى مراتب المعرفة وهي الحكمة. هذه النظرة الإسلامية للتاريخ تتطلب أن تكون المعرفة صحيحة وسليمة حتى يؤدي التاريخ وظيفته، ولن تكون المعرفة صحيحة أو سليمة إلا بقراءة صحيحة وسليمة لكافة الأنشطة البشرية في إطار البيئة التي نشأ فيها الإنسان ويعمل فيها، والبيئة هنا لا تعني الجغرافيا فقط، وإنما تعني الثقافة كذلك.

وقد أحدث ابن خلدون ثورة معرفية في علم التاريخ، التقطها الغرب ونماها وطورها ولا يزال، وأدت عصور الضعف والتردي العربي إلى وقوف العرب "محلك سر" في هذا المجال، حتى إنهم لم يعودوا قادرين على أن يجدوا في ثقافتهم ما يمكّنهم من حل مشاكلهم، فتوجهوا غربًا للبحث عن حلول لها، أو هكذا خيل إليهم، والسبب – في تقديري – أنهم لم يقرأوا التاريخ و لم يدركوا الخصوصية الثقافية لأنفسهم. هنا نستطيع أن ندرك إلى أي مدى يمكن أن يساهم التاريخ في صنع التقدم، وبالمناسبة، فإن الألمان يدرسون الآن فكرة التقدم في مجتمعات العالم الثالث من خلال التاريخ، وفي الربيع الماضي، كان الموضوع مطروحًا هنا في مكتبة الإسكندرية من خلال مؤرخ وأنثروبولوجي ألماني من منطلق أن مصر هي أحد نماذج ثلاثة أخضعت للدراسة التطبيقية.

غاية التاريخ وهدفه أن يشرح للإنسان ماهيته، وأن يساعده في فهم حقيقة وجوده، فالإنسان مولع بالماضي لدرجة أنه يعيش في داخله، لذلك تأتي دراسة التاريخ استجابة لمحاولة الإنسان الأبدية لمعرفة نفسه ومعرفة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الآخرين، هذه المعرفة ضرورية لمعرفة الوجود المحيط بالإنسان، ويجب أن ننبه هنا إلى أنه إذا كان علم التاريخ يرتبط بالماضي البشري من حيث موضوعه، فإن هدفه وغايته ترتبط بالحاضر والمستقبل.

المجال الزمني للتاريخ الذي نتحدث عنه هو الزمن الإنساني، أي عمر الإنسان على الأرض وليس الزمن بمعناه المطلق، فالتاريخ معنيّ بالتجربة الإنسانية على الأرض منذ نحو مليون وسبعمائة وخمسين ألف سنة، أما ما قبل ذلك فمتروك لمؤرخي التاريخ الطبيعي، وكل ما نملكه من هذا العمر الطويل للإنسان مرهون بما تترك لنا من سجلات مكتوبة يعود أقدمها إلى نحو سبعة آلاف سنة، وبالتالي فإن تاريخ الإنسان المعروف يبدأ من معرفته بالكتابة أما ما قبل الكتابة فهو المعروف في التقسيمات التاريخية بمصطلح "ما قبل التاريخ"، وما قبل الكتابة يدخل في مجال اهتمام علماء الآثار والأنثروبولوجيا.

يفهم مصطلح التاريخ في الوقت الحالي على أنه مقسم إلى ثلاثة مستويات:

الأول: التاريخ باعتباره تعبيرا عن المجمل الكلي للنشاط الإنساني.

الثاني: التاريخ باعتباره سجلا للحوادث وليس باعتبار الحوادث نفسها وهو تعريف شائع بين الدارسين.

الثالث: التاريخ بوصفه علما ونظاما تعليميا له معاهد متخصصة.

فالظاهرة التاريخية لها أركان ثلاثة:

الأول: الزمان الذي يعطي للحدث صفته التاريخية.

الثاني: المكان الذي يشكل مسرح الحدث.

الثالث: الإنسان الفاعل الرئيس الذي يجمع بين العنصرين السابقين.

والوعي بالتغيير هو ما نسميه الوعي بالمعرفة، أي تحديد موقع الأحداث في مجرى الزمن، والذي ينتج عنه التراكم المعرفي لدى الإنسان عن نفسه وعن الوسط المحيط. وحينما طرح سؤال ماهية التاريخ الأوروبي على سبيل المثال على مجموعة من الأساتذة الأوروبيين والأمريكيين وقفوا جميعا حيارى أمام البحث عن إجابة حاسمة عنه و لم يستطع أحد منهم أن يعطي إجابة شافية، وانتهوا إلى أنه حتى كلمة أوروبا ليست محددة بدقة.

والوصول إلى الحقيقة عند المؤرخ هو الوصول إلى محطة رئيسية من محطات كثيرة على طريق المعرفة التاريخية للوقوف على أرض الواقع الذي عاشه الأسلاف، وما يتوصل إليه الباحث من حقائق هو ما يتفق مع رغبته الخاصة – كما أشار الأستاذ محمود أمين العالم إلى ذلك – ويجري ذلك إشباعا لمطلب ذهني، بل لعلها محاولة ذهنية لتصوير الواقع، ولكنها ليست أبدا هي الواقع، لأن الواقع أبعد منالا من الحقيقة، فالحقيقة مسألة ذهنية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

داخلية، أو بعبارة أخرى الحقيقة فكر داخل العقل والواقع فعل خارجه. هذا التمييز بين الحقيقة والواقع لا ينتهي الجدل حوله، لكنه يسمح لنا بقبول الآراء المختلفة من منظور أن كل صاحب رأي يرى أن ما يقوله هو الحقيقة بشأن ما هو واقع، فالحقيقة إذن ما نعتقد أنه الواقع، وبالتالي ليست هناك حقيقة واحدة في التاريخ.

ولو حاولنا أن نضع بعض النماذج التي يمكن أن نترجم من خلالها كيف أمكن توظيف المنهج العلمي في قراءة التاريخ، ولنأخذ مثلا الأزمة العالمية الكبرى المسماة بالكساد الكبير الذي جرى في الاقتصاد العالمي في الفترة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٣ وامتدت تبعاته إلى الحرب العالمية الثانية، أصابت هذه الأزمة العالم الرأسمالي في مقتل وخربت اقتصاده، ولكن العالم غير الرأسمالي نجا من هذا، ومن بين المناطق التي تأثرت بما جرى في الأزمة الاقتصادية – و لم تكن مشمولة في العالم الرأسمالي — تلك المناطق البدوية المتخلفة، ولنأخذ منطقة الحجاز نموذجا لذلك، فقد تأثر اقتصاد الحجاز وانهار، مع أنه لم يكن يتمتع بأي هيكلية اقتصادية ولا نظام رأسمالي معين، ولكنه انهار، وبالبحث والتقصي من خلال دراسة الاقتصاد تبين أن السبب في هذا الانهيار في منطقة الحجاز إنما يرجع إلى أن الحجاز يعتمد في موارده على الحجاج الذين يأتون من المستعمرات الواقعة تحت الاستعمار الغربي، وحينما تنخفض قيمة العملة في هذه الدول تصبح غير قادرة على الوفاء باحتياجاتهم. إذن، مثل هذه الصورة التي تبدو غامضة أمام رجل الاقتصاد يمكن للمؤرخ أن يضع تصورًا علميًّا لحلها.

نموذج آخر، حين كنت أتردد على دار الوثائق البريطانية في عام ١٩٧٧ وقعت في يدي بالصدفة المحضة ودون أن أقصد وثيقة تتحدث فيها المخابرات البريطانية عن أن السوفييت يدعون للشيوعية على جبل عرفات! ولابد أن هذا الكلام يشد الانتباه بالنسبة لأي مسلم، فشدني هذا الأمر، وظللت أتابعه على مدى خمس سنوات، ألتقط ما يواجهني في هذا الأمر كي أقرأ الدلالة، دلالة الحدث وانتهيت إلى وضع دراسة في هذا الموضوع مفادها في جمل قصيرة أن السوفييت حوصروا بعد قيام الثورة البلشفية في الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٢٤، و لم يكن هناك من وسيلة للخروج من الحصار الذي فرضه الغرب عليهم إلا توظيف العناصر الإسلامية الموجودة في الجمهوريات الإسلامية حاليا حينما تخرج للحج، ولا يستطيع أحد أن يمنعها من أدائه، فأخذوا يعطونهم دروسا قبل سفرهم وعلى ظهر المركب وحتى وصولهم إلى الحجاز، وهناك يقوم هؤلاء بالدعوة إلى الشيوعية السياسية وليس إلى الأيديولوجية الشيوعية، هنا تكشف الموقف وتبينت الحقيقة.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

نموذج آخر للتفسير الديني للتاريخ، في سنة ١٩٢٤ سقطت الخلافة الإسلامية، وفي العام نفسه أعلن قيام الاتحاد السوفييتي، وفي العام نفسه أيضا هاجم الملك عبد العزيز الحجاز، كل ذلك حدث في عام واحد، متغيرات تهم الناس جميعا والمسلمين على وجه الخصوص، وانتهى الأمر إلى أن يعلن الهنود عن رغبتهم في إقامة جمهورية إسلامية في الحجاز، وأن ينتخب رئيسها من بين المسلمين انتخابًا عامًّا مفتوحًا. بالطبع كان الطرح ذكيًّا للغاية، لأن عددًا كبيرًا جدًا من المسلمين موجود في الهند قبل تقسيمها، وبالتالي تكون لها السيادة على الأماكن المقدسة.

نموذج آخر للتفسير التاريخي للتاريخ، حول كيفية توظيف التاريخ بحيث يفسر بعضه بعضًا، دفعني إليه ما انتهت إليه الهجمة الأمريكية الأخيرة على المنطقة تحت شعار تسعى من خلاله إلى أن تحقق السلام في العالم وأن تخلصه من الإرهاب. وقد دفعني هذا الموقف إلى أن أتأمل هذه النغمة، وكيف حاولت الولايات المتحدة أن تستفيد من المتغيرات الإقليمية والعالمية. وفي مقال نشر في الأهرام حول "السلام الأمريكي ودرس التاريخ"، وظفت فيه التجربة التاريخية التي مرت بها الإمبراطورية الرومانية التي كانت تسيطر على عالم البحر المتوسط، ثم الإمبراطورية البريطانية التي لم تكن تغيب عنها الشمس، وكيف انتهت كل واحدة منهما، وانتهيت إلى عنصر مشترك يضم التجربتين السابقتين إلى تجربة الأمريكيين ويبشر بأن الإمبراطورية الأمريكية ستسقط – دون أي ميول أيديولوجية من جانبي فأنا أتحدث بطريقة مجردة تماما – فكلمة الرومان حينما انهارت وضعفت سقطت الإمبراطورية، كذلك كلمة الإنجليز حينما انهارت وضعفت سقطت الإمبراطورية، والآن الأمريكيون يكيلون بمكيالين ولا مصداقية لكلمتهم، فهناك مؤشرات على بداية سقوط إمبراطوريتهم التي هي في مرحلة التكوين الآن.

نموذج أخير، في مايو ١٩٩٠ اتصل بي السير فرانسيس فالات أستاذ العلاقات الدولية في جامعة لندن ومستشار وزارة الخارجية، وسألني سؤالًا محددًا وانتظر مني إجابة، وكنت وقتها معارًا إلى جامعة قطر، قال: كيف تقرأ وجود آل خليفة في منطقة الخليج؟ وآل خليفة هم حكام البحرين اليوم، فطلبت منه أن ينتظر الإجابة مني بعد أربعة شهور، وبعد ثلاثة شهور وضعت قراءتي لهذا الموضوع أمامه، انتهيت فيها إلى توظيف الجغرافيا والتاريخ والأنثروبولوجيا وحركة السكان والمتغيرات الطبيعية، ثم وضعت خريطة لحركة آل خليفة لكي نحدد من خلال هذه الحركة إذا كان لهم حق في الجزر المتنازع عليها بين قطر والبحرين، وانتهيت إلى نتيجة مفادها أنني لا أستطيع أن أثبت الحق لقطر أو البحرين في المناطق المتنازع عليها. وبعد عشر سنوات وبالتحديد سنة ٢٠٠٠، صدر قرار

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

محكمة العدل الدولية التي كان الموضوع مطروحًا عليها بأنه لكلٍّ ما بيده ولكل ما بحوزته، لأن المحكمة أيضا فشلت في أن تثبت الحق لأي من الطرفين، وفي الحالتين فإن المنهج العلمي هو الذي ساعد على الوصول إلى هذه الحقيقة.

صلاح فضل:

اسمحوا لي أن أعترض قليلًا على مسار الندوة حتى الآن، بين تأملات فلسفية وإشارات تاريخية، أشفق عليكم عند بدء الحوار، فبماذا سوف تعقدون هذا الحوار؟ وكيف ستمسكون بمضرب الكرة وتقذفونه في وجه الأساتذة الكبار؟ لابد لنا من أن نطلب من الأستاذين الدكتور محمد الكردي والدكتور مصطفى العبادي أن يركزا على مشكلات قراءة التاريخ، لأن استعراض الأسس الفلسفية والمفاهيم المنهجية جميل، لكن المشكلات كثيرة وعميقة وذات تأثير حقيقي على حياتنا، وهذه المشكلات هي التي تشعل جذوة الحوار وهي التي تجعلنا أكثر قدرة على مشاركة العلماء ومساءلتهم أيضا. فهل أطمع من الأستاذين الكبيرين هذا التغير في نبرة الندوة؟ وهل أطمع منكم أن تضغطوا معي عليهما لتحقيق ذلك؟ لنرى ماذا سيقدم الدكتور محمد الكردي، وهو مفكر عاشق للفلسفة دارس للحضارة يتذرع بالدراسة والتأمل والتخصص في الحضارة الفرنسية، لكي يسوق لنا أفكاره وتأملاته ونتائجه في الأدب واللغة والثقافة العربية أيضا، فهو من خير من يوظف الثقافة الفرنسية لخدمة الثقافة العربية، ويجعل التاريخ الفرنسي مفيدا ودالا وذا نتائج إيجابية للتاريخ المصري، ونسأله عن ماهية المشكلات التي يراها في قراءة التاريخ.

محمد الكردي:

في الواقع، حينما فكرت في الموضوع، ذهب فكري إلى إيجاد مدخل طريف عن طريق المعرفة المرحة التي تحدث عنها نيتشه، لأننا استمعنا الآن إلى خطابين يتميزان بالوقار والموضوعية. وأتساءل ما هي مهمة المؤرخ؟ وأقول إن المؤرخ يكتب عن الغائب، فهو الوكيل المكلف للتعبير عن هذا الغائب، ومن هذا الغائب؟ هم الموتى الذين لا يتحدثون، وهذا شرط أساسي حتى يتحدث المؤرخ. والمؤرخ يقع بين حدين الماضي والحاضر، فهو أيضا يقع تحت هاجس القرب من الأحداث التي قد تؤثر عليه، ولذلك يُطلب من المؤرخين أو من الباحثين إيجاد مسافة بينهم وبين الموضوع الذي يكتبون عنه. في هذه المسافة بين الماضي والحاضر يبحث المؤرخ عن المعنى، وعن الحقيقة الغائبة، وهو دائما مرتبط بالغائب الذي عليه أن يستحضره، ولكن المسافة بين الحاضر والماضي هي مسافة

إشكالية، ومثال ذلك المؤرخين العرب والإسلاميين والذين يبلغ وفاؤهم للماضي أحيانا أن يجعلهم يغتربون في الماضي، أي يريدون أن يجردوه ويعظموه لتعويض النقص الموجود في الحاضر، لأن المؤرخ حينما يعالج موضوعًا من الموضوعات، لا ينطلق من الماضي البحت، وإنما هو ينطلق من الحاضر.

وأذكر عبارة جميلة للكاتب جان جينيه هذا الكاتب العظيم الذي كان في بداية حياته لصا وعاش في السجون، وكان بعد ذلك يعجب بالتاريخ، وسأله البعض لماذا تعجب بالتاريخ؟ قال: "لا تظنون إنني معجب بدقة الوثائق، كلًا، فربما رأيت فيلما وقد نزلت الكونتيسة فيه من العربة الفخمة فأعجبني مظهرها ومنظرها فأُعجبت بالتاريخ!" هذه الأسباب التي قد تبدو طريفة وعارضة هي في الواقع هامة جدا في ولعنا بالتاريخ.

إذن، فالعلاقة المتراوحة بين الوفاء للماضي وبين القطيعة أو رفض التاريخ، وخصوصا بالنسبة للمؤرخ الذي يريد أن يكون علميا موضوعيا، تجعلنا نحصل على نوعين من المؤرخين، المؤرخ المنتمي والمؤرخ اللا منتمي الذي يطبق منهج القطيعة. وهناك أيضا موضوع آخر، هي المسافة بين الجسم الاجتماعي، إذا تصورنا أن هناك طبيعة، والطبيعة تختلف عن الوثيقة، لأن المؤرخ حينما يعالج موضوعه فإنما يعالجه عبر الوثائق المكتوبة، والوثائق المكتوبة تكون منظمة أو غير منظمة لأنه أحيانا يضطر إلى إعادة ترتيبها وتركيبها للحصول على "الحقائق" التي يريد أن يصل إليها. فالمؤرخ يريد أن يكتب عبر الوثائق، والسؤال هو هل الوثيقة تلغي تماما أو تحجُب الطبيعة؟ ربما تظل هناك صرخات أو غمغمات تؤرقه حينما يكتب عبر الوثيقة، لكنه يصل إلى هذه الغمغمات وهذه الصرخات عن طريق العلوم الأخرى مثل علم التحليل النفسي مثلا، أو العلم الاجتماعي، فالمؤرخ ليس معزولا عن العلوم الإنسانية الأخرى، بالعكس، فلابد أن ينتمي أو أن يلم بهذه العلوم حتى يؤصِّل معرفته بالتاريخ.

بالنسبة لعلمية التاريخ واللا علمية، أتذكر أستاذي في فرنسا الذي كان يسخر من علمية التاريخ حيث كان يقول إن المؤرخ يتباهى بوجود وثائق، ولكنني أظن أن عالم أو مؤرخ ما قبل التاريخ ربما كان أكثر علمية منه، لأنه ربما عثر على ضرس ثم أخضعه لاختبار معملي فاكتشف عن طريقه معلومات تاريخية جديدة، فهذا أكثر علمية من الاعتماد على الوثيقة.

هناك أيضا فكرة أخرى لا بد وأن نتناولها، نحن نظن أن التاريخ شيء موضوعي، والسؤال هو ما هو الموضوعي في التاريخ؟ والإجابة هي الأحداث وبالذات الأحداث الميتة والوقائع، أما الربط بينها فهو خيال وتصور

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

للربط بين ما يسمى العلل والأسباب والنتائج. وهناك دراسة لكاتب فرنسي اسمه روجيه شارتييه عن دراسة الأصول والمصادر الثقافية للثورة الفرنسية ردا على كتاب صدر من قبل وهو المصادر العقلية أو الفكرية للثـــورة، بمعـــنى أن الثقافة تدخل فيها المؤسسات – فالثورة ليست نتيجة لأفكار عائمة في الفراغ، ولكنها نتيجة لتداخل عوامل مرتبطة ومنتمية إلى مؤسسات موجودة في المجتمع، وهذه المؤسسات طبقات، فالنظام القانوني مثلا، والصراع ضـــد نظـــام الامتيازات وهكذا – ثم سأل الكاتب سؤالا وجيها وهو: لو لم تحدث الثورة الفرنسية – وهذا سؤال احتماليٌّ – هل كنا اعتبرنا هذه الأسباب التي فخمناها وضخمناها هي أسباب حقيقية لجذوة الثورة ؟ ربما كان منظورنا سيتغير في هذه الحالة.

التاريخ والحكاية أخوان، فالمؤرخ يحكي لنا حكاية، لكنه يريد أن يقول لنا إنه اعتمد على الوثائق وتحقـــق منها، لكن كما قلت لكم عندما يقوم بالتركيب لابد من أن يدخل خياله في تنظيم المادة التي يتحدث عنـــها، فهـــو يشبه روائي التاريخ، فروائي التاريخ لا يستحي أن يتحدث عن الخيال، ولكن العالم يريد أن يستبعد الخيال وكـــأن الخيال وصمة، لكن الخيال لا يغيب، لأن الخيال يبرز عبر التصور الأيديولوجي الذي نفسر بـــه التـــاريخ. هنـــاك مفسرون يعتمدون على النظرة التي أطلقنا عليها النظرة اليسارية، بمعنى أن يأخذ منظـــور الطبقـــات المطحونـــة في الوصول إلى النتيجة التي يمثلها الحدث التاريخي، وهناك أيضا الذي ينطلق من منظور الطبقات العليا ليفسر الأحداث التاريخية، وفي كل حالة نحصل على منظورين أو أكثر للتاريخ، إذن التاريخ ليس شيئا جامدًا ولا موضوعًا ثابتًـــا لا يتغير، التاريخ يختلف حسب تفسيراته وهذه التفسيرات مفتوحة إلى ما لا نهاية.

ولابد من ربط التاريخ بالزمن، لأن البعد الزمني هو أساس التاريخ، فلو استبعدنا البعد الـــزمني فـــسنقوم بدراسة حالية أولى بها عالم الاجتماع أو عالم النفس أو عالم السكان أو عالم الاقتصاد، أما بالنسبة للتاريخ فلابد من أن نلتفت إلى الماضي. وهناك التاريخ التقليدي الذي كان عبارة عن تاريخ الأحداث، لأن المؤرخ في البدايـــة كـــان موظفًا عند السلطة فكان يهتم ويُعنى في المقام الأول بتدوين الأحداث العظمى مثل مـــيلاد الملـــك وزواج الملـــك وعشيقات الملك – إذا كانت هناك عشيقات – والمغامرات أيضا ثم الأحداث الكبرى مثل الحروب والمعاهدات وغير ذلك. وكما قلنا، ليس هناك اهتمام بالتاريخ في ذاته وإنما الاهتمام بالتاريخ ينطلق من الواقع، كذلك، التغير في فهم التاريخ وفي تطبيق المناهج التاريخية ربما أحسن مثال له مدرسة نشأت في فرنسا سنة ١٩٢٩ متزامنة مـــع الكـــساد العظيم، وهي مدرسة الحوليات التي أسسها المؤرخ مارك بلوك ومعه لوسيان فيفر، وقد كان مارك بلـــوك يهوديـــا

ومات شهيد النازية — إذا جاز القول – لأنه كان مؤمنا بالكفاح ضد النازية فأعدم رميا بالرصاص. كانت بداية مدرسة الحوليات الحدث المعاصر الذي أقلق المؤرخين الجدد، حيث أصبح هناك التاريخ الجديد الذي ينشأ مع هذه المدرسة فصلا له عن التاريخ التقليدي الذي يقوم على تحقيق الوقائع والاعتماد على الوثيقة كما هي ودراسة الأحداث بوجه خاص، وقد دفعت الأزمة الاقتصادية هؤلاء الكُتاب إلى الاهتمام بالتاريخ الاقتصادي، فبدأ كُتاب مثل فرانسوا سيميان – والذي كان رجل اقتصاد – بدأ يدرس تاريخ الأسعار في فرنسا في القرن السادس عشر مع اكتشاف القارة الجديدة وإيجاد المعادن النفيسة في مناجم المكسيك وبيرو، وجلب هذه المعادن إلى إسبانيا ثم انتشارها في أوروبا وبداية الرأسمالية التاريخية التي تبدأ في القرن السادس عشر ثم حالة الركود التي وجدت في القرن السابع عشر بعد نضوب هذه المناجم ثم النهضة الجديدة مع الانتعاش الاقتصادي في القرن الثامن عشر مع اكتشاف مناجم جديدة في البرازيل. أي أن القوة العاملة في هذا الوقت لم تكن هي الفاعلة المنتجة للثروات وإنما كانت فكرة إيجاد معادن نفيسة كأساس لحركة التبادل، المسألة إذن أن هناك مسألة تُطرح، مما يؤسس منهجًا تاريخيًّا معينًا، والمنهج هو التاريخ، بمعنى ألا نتوجه إلى التاريخ بطريقة عشوائية أو عفوية رغبة في تأريخ فترة ما فقط، وإنما نطرح سؤالًا وهذا السؤال يحدد المنظور والمدخل، فعندما نطرح أسئلة عن التاريخ فسنقوم أيضا بعملية انتقائية، لأن كل العناصر الموجودة التي وجدناها أو لم نجدها في الوثيقة التاريخية سنحاول أن نجدها بطريقة أخرى. إذن، الاهتمام بالناحية الاقتصادية كان هامًّا جدًّا في هذه الفترة وهذا سؤال طرحه العصر نفسه.

كان الموضوع المطروح هو الإصرار على أن التاريخ هو تاريخ الرجال وليس تاريخ الميكانزمات ولا الآليات، لأن الاقتصادي حينما يدرس، لا يعنيه الإنسان، فحتى لو تحدث عن الإنسان الاقتصادي فهذا مجرد صورة أو تصور، لكنه يبحث عن آليات العرض والطلب ونظام السوق، وحينما يدرس الاجتماعي أيضا فإنه لا يبحث عن الفرد وإنما يبحث عن الميكانزمات الاجتماعية. لذلك أصر المؤرخون أن يُدرجوا الاهتمام بالإنسان كقوة فاعلة عبر التاريخ، هذه القوة الفاعلة يمكن النظر إليها مثلا في علم الجغرافيا، فعندما ننظر مثلا إلى كتاب الدكتور جمال حمدان "عبقرية المكان"، وحينما ننظر في فلسفة هذا الكتاب نجد أنه صورة جبرية لتخيل الرجل الشرقي لتأثير المكان، فكأن تأثير المكان مسألة حتمية، وهنا تبرز فكرة الحتميات. في العصر القديم، كانت الحتميات تأخذ صورة جبروت وسطوة الآلهة، وتحولت إلى القضاء والقدر، ولكن في الفلسفة اليونانية وفي الفكر اليوناني حدث صراع بين الإنسان والآلهة، وبعد هذه الصورة التي تؤكد على القضاء والقدر وعلى حتمية البيئة وعلى حتمية المكان صارت هناك حتمية تاريخية، وقد اكتشف المفكرون في القرن التاسع عشر هذه الحتمية الجديدة، فأطلق عليها ماركس "المادية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

التاريخية"، وأطلق عليها هيجل "فلسفة ظاهريات الروح". فهناك تدرج من بداية الإنسانية يصل في النهاية إلى صياغة المجتمع الغربي الذي يصبح في نظر أصحابه نهاية التاريخ، أو قمة التاريخ حينما يعي العقل نفسه أي أن العقل الغربي هو العقل كله وليست هناك إلا عقول بدائية تدرجت ثم تلاشت فيه بعد أن اكتمل. إذن، هذا المنظور التاريخي لو اعتبرناه رؤية موضوعية لانتهى الأمر بالنسبة لنا ولأصبحنا في قمامة التاريخ ولسنا في قلب التاريخ.

لقد حدث هذا التصور مع بزوغ مذاهب أخرى، إذ أكدت العلوم الاجتماعية مع انتشارها في ظل مدرسة تسمى البنيوية تألقت في الستينيات بأن الإنسان ليس هو الفاعل، وبالنسبة لماركس الذي تحدث عن المادية التاريخية والحتمية التاريخية، لكنه ترك لنا بصيصًا من الأمل في الثورة والثورة هي كسر الحتمية، وليس ضروريًا أن تحدث الثورة، فعندما أظل مثلا أضرب إنسانا ليلا ونهارا فمن الحتمي أن يأتي اليوم الذي يثور فيه، لكن من الجائز أيضا ألا يثور، وأن يكون مازوكيا يهوى تعذيب نفسه والشكوى الدائمة مما يحدث له مثله في هذه الحالة مثل البلاد العربية التي تجد الموقف المؤلم ولا تفعل سوى ترديد العبارات الرنانة الجميلة مثل "نبحث عن العدالة المطلقة" و"ننتظر ولكننا لن نسلم أبدا" إلى آخره. بمعنى أن الإنسان لديه دائما إمكانيات كثيرة في تبرير أو قبول الواقع والاستسلام وإما الثورة حتى لو أن الثورة سوف تودي بحياته.

إذن، التاريخ كمنظور وكرؤية وكمنهج يتغير مفهومه وفقا للتساؤلات المطروحة، فبعد طرح التاريخ الاقتصادي، طُرحت قضية تاريخ العقليات أو الذهنيات، وقد طرحت في مدرسة الفيلولوجيا أو مدرسة فقه اللغة حينما اكتشف اللغويون أن اللغات تشكل عائلات، فهناك عائلات هندو-أوروبية وعائلات سامية، فدخلت فيها أيضا الأيديولوجية، وأكد أرنستو رينان أن اللغات ذات الأصل الهندو-أوروبي ستؤدي إلى عقلية علمية – وعلمية أيضا لابد من تفسيرها فكلمة علمية في القرن التاسع عشر مثلا تعني وضعية أي تحول الحياة كلها إلى أشياء حتى الإنسان وطبعا هذا منظور ضيق – فاعتبر أن اللغات السامية لغات استعارة وتشبيه، واللغات السامية منها اللغة العبرية ولكن منها أيضا اللغة العربية على وجه الخصوص – والتي كانت تسبب لهذا الكاتب وجعا معينا – فكان يتخذها مثالا للتشبيهات والاستعارات، وربما قد يجد مصداقية حينما يقرأ العناوين الجميلة التي قد تزين كتبنا مثل "العقد الفريد" وغير ذلك مما يسميه الفرنسيون "الأسلوب المُزهر".

هذا المنظور التاريخي لدراسة العقليات، تحول في النهاية إلى دراسة الشخصيات، وقد نشأ هذا الموضوع في أمريكا بوجه خاص بعد معركة اليابان لأنهم وجدوا عالما جديدا لا يفهمونه، فطُرح عليهم موضوع دراسة مقومات الشخصية الوطنية، فنشأت الدراسات من إبراهام كاردينر الذي تحدث عن الشخصية الأساسية التي تمثل ربما روح

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الشعب في الفكر الألماني التي تظهر عبر تجليات معينة. ثم تطورت الشخصية بعد ذلك، لتظهر الشخصية الوطنية والشخصية المصرية كما يراها الإسرائيليون مثلا والشخصية الإسرائيلية نفسها، فعدنا إلى الأيديولوجيات، إذن، فالتاريخ – كما نرى – ليس بعيدا عن الأيديولوجيات. وهناك مثال لمؤرخ مشهور اسمه فرنان برودل والذي كان زعيما لمدرسة الحوليات بعد موت مارك بلوك ولوسيان فيفر، وهذا الرجل نظر لازدهار الأنثروبولوجيا البنيوية، فأراد أن يجعل من التاريخ علمًا ثابتًا أو تاريخًا راكدًا وذلك لكي يجعل من التاريخ ليس مجرد أحداث متناثرة، وإنما ليبني هياكل اجتماعية وهياكل جغرافية، وكانت دراسته عن البحر المتوسط وعن فيليب الثاني – الذي تحمل الفلبين اسمه – واستخدم الجغرافيا في إرساء قواعد لفكرة تاريخ طويل المدى، لأن التاريخ كما قلنا يدرس فيه الزمان، وهناك زمان متلاحق وهناك زمان يقوم فيه الفلاسفة بعمل قطيعة في مفهوم التاريخ بمعنى أن التاريخ ليس مجرد الحدوتة أو الأحداث إنما الهياكل، وعندما يحدث تحول في هذه الهياكل فيحدث تاريخ، فليس التاريخ مجرد الأحداث الظاهرة على السطح. إذن، فقد حاول فرنان برودل أن يقدم لنا منظورًا للتاريخ أشبه بمنظور العلوم الاجتماعية أو العلوم الأنثروبولوجية، لأن الأنثروبولوجيا أراد فيها كلود ليفيستروس أن يدرس الإنسان كتركيبة ذهنية نفسية لا تتغير، وإنما الذي يتغير هو تجليات هذه الذهنية عبر التاريخ سواء القديم أو الحديث.

في النهاية، وصلنا إلى رؤية أخرى وهي الرؤية الفلسفية مثل ميشيل فوكو والذي لا يدرس ما هو متسق في التاريخ، وإنما يدرس الاختلاف، فمثلا ظاهرة المجانين بوصفها اختلافا واستثناءً تجعله يدرس التركيبة الاجتماعية والفكرية للمجتمع، لأن الجنون مرآة عاكسة للمجتمع، فكيف نستطيع أن نصل إلى رؤية الآخر في المجتمع؟ لأن التاريخ الرسمي يعطينا دائما صورة موائمة للسلطة، لكن المتمردين والثوار هم دائما الذين يقال عنهم مجانين أو ملاحدة أو مهرطقين في حين أنهم المجددون لأنهم هم الذين يُحدثون التغير في البنية الاجتماعية وهم الذين يتنبأون بالمستقبل وحدوثه.

أما عن نهاية التاريخ، فأنا كثيرا ما أسمع تفسيرات غريبة للغاية عن نهاية التاريخ الذي تحدث عنه فوكوياما و لم يأت به من فراغ وإنما أخذه عن هيجل، لأن الفلسفة الحديثة كلها معناها نهاية الميتافيزيقا وموت الإنسان وتتحدث أغلبها عن النهايات على أساس أن يبدأ إعادة تأسيس وبناء فكر جديد. وقد نظر فوكوياما للتاريخ بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، لأن وجود الاتحاد السوفيتي كان يعطينا أملا في أن التاريخ يسير في خطوات من المجتمع الإقطاعي إلى الرأسمالي إلى الاشتراكي إلى الشيوعي، واعتقدنا أن هذه حقيقة مسلَّم بها، ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أصبحت هناك بلبلة، وقد جاء وقتها فوكوياما، وقال إن التاريخ انتهى، وفكرة أن التاريخ انتهى موجودة في فرنسا في بدايات القرن العشرين، ومعنى هذا أن التاريخ في علاقته بالإنسان أعطى مجموعة تجارب، ورأى

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

فوكوياما عن المجتمعات التي قدمها لنا التاريخ من مجتمع عبودي إلى مجتمع إقطاعي إلى مجتمع شمولي سواء أن كان شيوعيا أو نازيا أو أنظمة الاستبدادية على اختلافها تسحق الإنسان، فلابد أن أفضلها هو النظام الديمقراطي، لكن هذا ليس معناه أن الديمقراطية أو الليبرالية لها صورة واحد هي تلك الموجودة في فرنسا أو أمريكا أو إنجلترا، وإنما هناك أشكال مختلفة، وبهذا المعنى، ونتيجة لفهمنا لدروس التاريخ السابقة، فقد أصبحنا خارجه أو فوقه، فتبدأ من هنا صورة أسميها بانورامية. والآن، أمريكا هي القطب الوحيد في العالم وهي كلاعب الشطرنج، أو نائب الإله، إذا أرادت أن تثير مشكلة هنا أو هناك أو في أي بقعة من العالم فهي تفعل ذلك، فأصبح التاريخ في قبضتها.

وهكذا، انتهى التاريخ بالرغم من كونه تدرجًا وتطورًا إلى ما لا نهاية، وهنا المفارقة، فقد حلم المؤرخون قديما بالإسكاتولوجيا أو بنهاية التاريخ، وماركس يحلم بنهاية التاريخ، وقد وضع العاقلون نهاية التاريخ في الآخرة حين ينتهي كل تاريخ ويصبح الزمان لا وجود له.

صلاح فضل:

والآن بقي دور الشيخ، شيخ المؤرخين والحكماء والمفكرين، عندما سألته قبيل هذه الندوة في أي موقع أو في أية لحظة تريد أن تدلي بدلوك فقال لي لأكن في النهاية، وهذه هي الحكمة، أنه يستطيع أن يستقطب ويلخص ويرى ويوجز ويضع لنا المؤشرات ويمنحنا شيئا من الوحدة التي تشتت بين هذه العروض لأنه ما بين تأملات فلسفية وملاحظات منهجية ونزوات ثقافية وحضارية جميلة شيقة وممتعة، لم يعد من الممكن لكم أن تمسكوا بخيوط الحوار كما لابد أن نمسك بها بعد قليل لكي نطرح أسئلتنا ومساءلتنا، لنستمع إلى صوت التجربة والتاريخ العريق من صوت الدكتور مصطفى العبادي.

مصطفى العبادي:

بعد أن استمعت للزملاء الثلاثة الأفاضل، أصبحت في حيرة من أمري، فكثير من النقاط التي خطر لي أن أتحدث عنها أو أتناولها أفاض فيها أحد الزملاء. ولذلك، سأحاول أن أستجيب لاقتراح الدكتور صلاح فضل أن يكون دوري أشبه بدور المعلق على ما سبق، فبعض الأطروحات التي تقدم بها الزملاء الثلاثة أضاءت جانبا من فكري وبعضها أثار شيئا من الغموض في تفكيري. فأحيانا كان يستقر في ذهني تصور أو معنى بالنسبة للتجربة التاريخية الإنسانية أجد مثلا الأستاذ محمود أمين العالم – بكل معنى الكلمة والاسم – يطرح شكًا في أن الزمن له

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

اتجاه واحد، وأنا كنت أظن أن الزمن له اتجاه واحد ولا يمكن أن يتكرر، ولا يمكن أن نعود لحظة مرة أخرى، ويتصل هذا بالحركة التاريخية، فالتاريخ أيضا له اتجاه واحد ولا يمكن أن يتكرر، فجميعنا يدرك أننا كأفراد نتغير كل يوم ونكتسب معرفة جديدة أو ننسى شيئا مر بنا أو يمر بنا أشخاص لم نكن نعرفهم من قبل أو تتغير أحوالنا المادية والعقلية والذهنية، فإذا كان هذا هو حال الفرد في حياته فما بال الجماعات؟ حقيقة، هناك مقومات ثابتة كما أشار الدكتور محمد الكردي عن أصحاب مدرسة الحوليات والتاريخ الجديد يتحدثون عن قضيتين: الثوابت والمتغيرات، فهناك ثوابت ومتغيرات في تكويناتنا كأشخاص وكمجتمعات، والتفاعل بين العنصرين ينتج حركة.

العلاقة بين المصادفة والتاريخ جعلتني أحتار، فقد كنت أظن أن المصادفة هو حدوث حدثين في وقت واحد على غير ارتباط بينهما، وينتج عنهما أثر، فليس فيها ضرورة، فمثلا إذا صادف أن كنت سائرا بجوار بيت وسقط في هذه اللحظة من هذا البيت حجر ضخم فوق رأسي فربما يقضي علي، هذه صدفة لم يقصدها أحد، ولكن في أحداث التاريخ ومع وجود العامل الإنساني، فكثيرا ما تكون الأمور مدبرة ومخططة ومرسوم لها ومقصود إليها، وهذا هو الأكثر تأثيرا في الحركة التاريخية.

بالأمس دار حديث بيني وبين الدكتور جمال حجر على التليفون حول تغير عنوان الندوة من "تاريخية التاريخ" إلى "كيف نقرأ التاريخ؟"، وأنا سعدت أنه تغير لأنه – كما أثار الدكتور جمال حجر – قد يعني أمورا مختلفة على الرغم من محاولات تبسيطها إلا أنها لا تزال صعبة، لأن كيف نقرأ التاريخ؟ تعني ربما كيف نفهم التاريخ؟ ولكن يمكن أن تعني شيئا سابقا على ذلك وأساسيًّا وهو كيف ندرس التاريخ؟ وهذه القضية فعلا قضية صعبة جدا لأن المؤرخ – كما قال الدكتور محمد الكردي – يتحدث باسم الغائب، يتحدث عن عصر مضى وعن أناس ماتوا ولا يستطيعون أن يتحدثوا بأنفسهم، ومهمة المؤرخ هو أن ينشئ جسر اتصال مباشر بينه وبين هذا المجتمع الماضي أو الإنسان الماضي، وبقدر ما يتمكن المؤرخ من إقامة هذا الاتصال يرتفع قدر المؤرخ وتتضح رؤيته، وتكون أحكامه أكثر صدقا، لكن إذا فرض تصوره هو على الماضي فستصبح الصورة غير حقيقية، صورة خيالية، وشتان بين الخيال الذي ذكره الدكتور محمد الكردي وبين الرؤية. المؤرخ الأكثر نضجا يكون لديه رؤية أوضح وأصدق، وإذا أخذنا مؤرخًا من عمالقة المؤرخين في القرن الثامن عشر وهو إدوارد جيبون والذي ألف كتابا مشهورا للغاية عن اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية، وقد كتب إدوارد جيبون في القرن الثامن عشر منذ مائتي سنة أو أكثر، ولم يكن كثيرًا من المعلومات قد توافر، فطيلة القرنين التاسع عشر والعشرين نجد إحدى أعظم فترات التاريخ بحثا وتنقيبا وكشفا وتحليلا ودراسة لم يلم بها هذا المؤرخ، فكل الكشوف الأثرية والوثائقية وكل الدراسات الكثيرة جدا عن النقوش والعملات، كل ذلك عاش قبله هذا المؤرخ الكبير، ومع ذلك، فرؤيته في كثير من أجزاء عمله لازلنا

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

نقبلها ونقبل تاريخيتها بمعنى أننا نقبل حقيقتها، لأنه كان عنده هذا الكشف والرؤية وليس الخيال، فالخيال هو حين نفرض تصوراتنا على غيرنا، لكن الرؤية حين ندرك رؤية غيرنا وعقولهم وأفكارهم رؤية صحيحة. وقد نشر الدكتور جمال حجر مقالة ممتعة في الأهرام حول انهيار الإمبراطوريات على الرغم من أنه لم يذكر انهيار الإمبراطورية العربية، والمدلول واحد وهو سيطرة مجتمع على مجتمعات أخرى وإقامة سيطرة كبرى.

وأعود إلى إدوارد جيبون وإلى كارل ماركس وإلى أرنولد توينبي والذين حاولوا كلهم أن يتناولوا موضوعات تاريخية كبرى، ففي جانب منهم كانوا يفكرون في الوقت الحديث بالنسبة لهم، بمعنى أنهم يدرسون الماضي وعقولهم متجهة إلى المجتمع الذي يعيش فيه وأنا أقصد المجتمع الأوروبي الذي أفرز هؤلاء المؤرخين الثلاثة. فيدرس إدوارد جيبون الإمبراطورية الرومانية ويحاول أن يبحث ويعرف أسباب اضمحلالها وسقوطها، لأن الإمبراطورية الرومانية جاء ترتيبها في نهاية ما اصطلحنا على تسميته بالتاريخ القديم، والذي يشمل الكثير من المجتمعات القديمة البابلية والمصرية والهندية والإيرانية واليونانية وتأتي الرومانية في المرحلة الأخيرة، وقد سيطرت على معظم هذه الأقاليم، فأصبحت دولة عالمية، وبسقوطها وانهيارها انهارت تجربة إنسانية كبرى وهي الحضارة القديمة بجوانبها الدينية والمادية والأخلاقية والمؤسسية ودخلنا في مرحلة جديدة. وحين يدرس هو، يحاول أن يتعرف على الأسباب التي بسببها انهارت المجتمعات حتى يمكن للحضارة الحديثة أن تتجنب أو تتدارك هذه الأسباب. وجانب من تفكير كارل ماركس أن الانقسام الطبقي داخل المجتمع يؤدي إلى انهياره، فإذا ألغينا الطبقات نحافظ على الحضارة التي نعتبرها أرقى ما وصل إليه الإنسان.

يقول أرنولد توينبي في جانب من كتاباته إن ما يؤدي إلى سقوط الحضارات هو الصراع بينها، التحدي والاستجابة، وهو لا يقصد الدول فهو لا يتعامل مع بيئات محدودة وإنما هو يقسم العالم إلى بيئات حضارية. جميع هذه المحاولات تسعى للكشف عن أسباب سقوط المجتمعات، فقد كان في ذهنهم أن المجتمع الأوروبي والغربي بصفة عامة يمسك مقاليد القيادة الحضارية ويريدون له الاستمرار، شبينجلر قام بعمل نفس الشيء حيث كان يدرس أمراض المجتمع كما يدرس الطبيب أمراض الجسم، فقد كان يدرس حالات الجنون والسُكر والتفسخ العائلي وحالات الانحراف بأنواعها، وكلما زادت هذه الانحرافات دلت على ضعف المجتمع، فهؤلاء المؤرخون يدرسون الماضي لخدمة الحاضر.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، أصيبت الحركة التاريخية في أوروبا بصفة خاصة بحالة ذهول، وكانت المدرسة التي أشار إليها الدكتور محمد الكردي وهي مدرسة الحوليات تربة خصبة لتحمل مسئولية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

التاريخ، فكان لها دور قيادي في أعقاب الحرب. وما أصاب الأوروبيين بصدمة هو أن أوروبا حتى بدايات القرن العشرين كانت تعتبر نفسها على قمة الوجود الأرضي علما وثقافة ومعرفة وإحاطة وسلطانا، وبدأ التحول منذ الحرب العالمية الأولى لكنه لم يكن واضحا، وكانت الحرب العالمية الثانية بمثابة إعلان النتيجة النهائية. وعلى الرغم من أن الحربين الأولى والثانية نشأتا في أوروبا، إلا أننا سنركز على الحرب الثانية لأنها هي التي أنتجت الأزمة، فدول المحور كان أقطابها ألمانيا وإيطاليا واليابان ودول الحلفاء كانت أقطابها إنجلترا وأمريكا، وانتهت الحرب بانتصار الحلفاء وانهزام دول المحور، لكن الحقيقة أنه حين انتهت الحرب كان هناك منتصر واحد وهو أمريكا. هذه الحقيقة لم تكن ظاهرة في البداية، لكن أوروبا شعرت بها، وهذا التغير أصاب المؤرخين بصدمة لأنهم وجدوا أنهم وهم أكثر من درسوا التاريخ لا يستطيعون أن يفيدوا مجتمعاتهم ولا أن يحافظوا على مركز القيادة في أيديهم، ووجدوا السلطة والقيادة كلها تخرج من أيدي الأوروبيين وهم عاجزون كل العجز.

وفي سنة ١٩٥٩-١٩٦٠ يقول هانس مايرهوف: " لقد شهد عصرنا (يقصد الفترة التي نتحدث عنها في أعقاب الحرب العالمية الثانية) ذروة التعقيدات التي بدأت تتكون في القرن التاسع عشر، ولقد بلغ العالم درجة من التعقيد بحيث لا يجدي في فهمها عملية التحليل التاريخي (مما يبين اليأس من قيمة التاريخ وفائدته) فبالنسبة لمعظم الناس يبدو تتابع الأحداث في التاريخ المعاصر من ١٩٤٥ وحتى ١٩٧٥ شديد السرعة والتناقض والغموض (ربما نشعر الآن بشيء بهذا المعنى) وإن القوى التي تحركها شديدة الخفاء وغير منطقية ولا يمكن التحكم فيها لدرجة أن الناس يشعرون بالضياع في هذا العالم من تاريخ ليس من صنعهم (هم عاجزون تماما عن التدخل في حركة التاريخ في أوروبا) وأن البدائل المتاحة أمامهم هي أن يعتزلوا التفكير في التاريخ ويتركوه للمؤرخين المحترفين أو أن يفروا كما فعل كثير من المؤرخين من أعباء التاريخ إلى عقيدة ما وراء التاريخ تتمثل في الفن أو في الأساطير أو في الدين أو في اللامبالاة." فهذه هي حالة الصدمة التي أصابت المؤرخين حين شعروا بالعجز عن التحكم في حركة التاريخ.

مدرسة التاريخ الجديد هي فئة من المتمردين الذي رفضوا موقف اليأس وموقف العزلة، وأعلنوا دعوة قوية إلى كتابة تاريخ جديد، فرفضوا الخوض في الجدل الإبيستمولوجي، فقد كان فلاسفة التاريخ مهتمين بدراسة فائدة التاريخ وحقيقة المعرفة التاريخية، ويقولون إذا عرفنا ماضينا وكيف جئنا يمكن أن نعرف إلى أين نحن ذاهبون، لكن الأزمة أثبتت أن معرفتهم للماضي لا تدلهم على طريق إلى المستقبل، لكن المدرسة الجديدة رفضت ذلك وقال أحدهم إذا كان الفلاسفة قد شغلوا أنفسهم بحقيقة المعرفة فواجب المؤرخ أن يشغل بمعرفة الحقيقة. فعكف هؤلاء المجددون على تقويم التجربة التاريخية السابقة، فقد كانت هناك تجربة رائعة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين،

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

وخرجوا بموقف حاسم وهو أن الأزمة لم تنشأ بسبب قصور في طبيعة المعرفة التاريخية ولكن بسبب قصور في تصور المؤرخين الصادقين ومناهجهم، ومن أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية لابد من إحداث تغيير في طبيعة الدراسة التاريخية، ولابد من استحداث مناهج جديدة، فإذا كان المؤرخون حتى منتصف القرن العشرين قد حققوا درجة عالية من النظرة الشمولية إلى التاريخ وقلبوا النظر في جوانبه المتعددة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والحضارية بإجمالها، وذلك بمنهج علم التاريخ والذي نضج في أواسط القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين واستقرت، فإن حركة التاريخ الجديد تدعو إلى نظرة أكثر عمقا وأكثر كشفا بتطبيق مناهج العلوم الاجتماعية ذاتها، بمعنى أنهم رفضوا فكرة التاريخ السياسي والتاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي والتاريخ الحضاري بالمعنى التقليدي ودعوا إلى دراسة السياسة التاريخية والاقتصاد التاريخي والاجتماع التاريخي، والفرق مثلا بين التاريخ الاجتماعي والاجتماع التاريخي هو أن التاريخ الاجتماعي يتجه إلى وصف المجتمعات في التاريخ في الماضي، هم يرفضون طريقة الوصف وطريقة الموضوعات، الدعوة الجديدة هي دراسة مشكلات الاجتماع في التاريخ وتطبيق منهج علم الاجتماع في التاريخ، لذلك اتجهوا إلى أسئلة جديدة – أشار الدكتور محمد الكردي إلى بعض منها – مثل بنية الأسرة وعدد أفرادها ذكورها وإناثها، نسب المواليد والزواج والطلاق والوفيات، المنهج الإحصائي في الأجور ... إلى آخره، بمعنى أنهم نظروا إلى مشاكل الإنسان العادي بعيدا عن السلطة، لأنهم رأوا أنهم وحتى القرنين التاسع عشر والعشرين كان التاريخ يُدرس من وجهة نظر الحكام والآن يدرسون التاريخ من وجهة نظر الإنسان العادي، واعتبروا أن دراسة الفلاح في قرية نائية في فرنسا أهم من دراسة لويس الرابع عشر، وأن الجندي أهم من نابليون إذا وصلنا إلى معرفة مجتمع الجنود الذين حاربوا، وهذه النظرة الجديدة هي دراسة المجتمع في الماضي بأسلوب علم الاجتماع وبأسلوب علم الاقتصاد وبأسلوب علم الديموغرافيا. وقد أعانهم على تحقيق مثل هذه الثورة في التصور التاريخي أنه في القرنين الماضيين ازداد الاهتمام بدرجة عالية بالوثائق، وإذا كان الدكتور محمد الكردي يرى أن الوثيقة لا تفسر التاريخ، فإنها في يد المؤرخ تصبح كاشفة للتاريخ، وهناك فرنسي يُدعى لادوري كتب عن قرية على حدود فرنسا أو سويسرا اكتشف فيها ثلاث مجلدات من محاكمات محاكم التفتيش، كانت هناك نزعة دينية وصفت بالهرطقة اسمها "le cathare" أو المتطهرون، وقد أرسل البابا لجنة للتحقيق والتفتيش أحضرت كل شخص في القرية واستجوبته رجالا ونساء وحتى الأطفال في سن ناضجة، وسجلوا أقوالهم بدقة وكان ذلك في القرن الثالث عشر. وقد سجلت هذه المحاكمات باللغة اللاتينية وبقيت في أحد الأديرة إلى أن كُشف عنها في الستينيات، وتوفر لادوري على دراستها وقدم لأول مرة حياة قرية.

كذلك، هناك فرنسي آخر اسمه لوجوف اهتم بشيء ذكره أيضا الدكتور محمد الكردي حول مسألة أن التاريخ لا يقسم إلى فترات ولا يقاس بعشرات السنين، ولكن قد تمتد حركة التاريخ لألف سنة، فعلى المؤرخ أن يتعمق التجربة التاريخية والموقف الإنساني في المجتمع للأفراد وتطورها ويلحظ الحركة الدائمة، فالحركة ليست دائما قوة وصراعا ومعارك لكن الحركة الداخلية في الإنسان أهم من الحركة الظاهرة، هذا هو الاتجاه المعاصر الأخير والذي يقدم صورة جديدة للتجربة التاريخية للإنسان أعتقد أنها ستكون أقرب إلى التاريخ من كل التجارب السابقة.

سعد مهلل محمد (مدرس اللغة العربية ومشرف النشاط الثقافي بمدرسة الرمل الثانوية – بنين):

سؤالي للدكتور جمال حجر، المعروف أن العبرة من دراسة التاريخ هو معرفة ما كان والتأمل فيما هو كائن والحذر مما سوف يكون، ومن خلال الأحداث الجسام التي تمر بالعالم العربي في مختلف أنحاء العالم، هل تعتقد أننا كمجتمع مصري استفدنا أو نستطيع أن نستفيد من دراسة التاريخ؟

سعيد حسن:

سؤالي للأستاذ محمود أمين العالم، وهو سؤال تاريخي مؤلم بل شديد المرارة وأرجو الإجابة بشجاعة العالم، لماذا منعت من التعامل مع أجهزة وزارة الإعلام المصرية منذ سنة ١٩٦٠ وحتى الآن؟ وما هو هذا المخطط الحكومي الجهنمي بعدم إلقاء الأضواء على أعمالكم وآرائكم؟ وهل مازلت وأنت الزميل النجيب الوفي للدكتور سلامة موسى والدكتور زكي مبارك وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي هل مازلت متمسكا بكل شجاعة بالعقيدة الماركسية اللينينية؟

أحمد أبو زيد (أستاذ الأنثروبولوجيا بآداب الإسكندرية):

في الواقع، لقد أعجبت بما قيل من المنصة، لكنني سأبدأ بما ذكره الدكتور محمد الكردي لأن هناك صلات فكرية بينه وبيني وخاصة في ما يخص مدرسة الحوليات ثم ما ذكره عن برودل ثم ما ذكره أيضا عن فوكو، كل ذلك يلعب دورا كبيرا في تكويني الفكري. هناك في حقيقة الأمر – على الأقل في أمريكا – اتجاه جديد لدراسة التاريخ، وفي هذا الاتجاه الجديد يدرسون الواقع الحالي لكي يفسرون به الماضي وليس العكس، بمعنى أن نقطة الانطلاق الآن هي الواقع الحالي الموجود في المجتمعات المختلفة. سأشير فقط إلى كتاب واحد، وهو كتاب صدر تقريبا عام ١٩٩٨ كتبته أستاذة في علم التاريخ في إحدى الجامعات الأمريكية اسمها جيلدا ليرنر، والكتاب عنوانه

Why History matters?، وجيلدا ليرنر سيدة يهودية عاشت في النمسا وهاجرت تحت حكم النازية إلى أمريكا، وبدأت تدرس الاضطهاد الذي وجده اليهود في النمسا وألمانيا وكيف عاشوا التجربة القوية التي مروا بها، وقد ذكرت في الكتاب بعض أشياء منها أنها وهي تلميذة حصلت في مادة من المواد على درجة B وإذا بأبيها الذي كان يشفق عليها يضربها ضربًا مبرحًا ثم يقول لها إن اليهود لا يحصلون إطلاقا على B وإنما يحصلون دائما على A! وكانت هذه هي البداية لكي تشعر بالمأساة التي عاش فيها اليهود، ثم بدأت من هذه الواقعة تهتم بدراسة التاريخ الوسيط والتاريخ القديم لكي تبين العلاقة بين اليهود وبين الأجناس والسلالات والشعوب الأخرى.

وقد استعانت الكاتبة في دراستها بمدخل شمولي، فقد استعانت بالتاريخ وبالجغرافيا وبالأنثروبولوجيا وبالبيولوجيا وبالعلوم المختلفة لكي توضح جوانب هذه المشكلة، لكن المهم أنها بدأت من الواقع. وفي أثناء حديثها ذكرت بعض المقولات التي لصقت في ذهني مثل قولها إن التاريخ التقليدي الذي ندرسه في الجامعات هو تاريخ حفري ثم تساءلت عما إذا كان هذا التاريخ يستطيع أن يساير الأحداث الواقعية والمستقبلية أم أنه الآن كما يكتب هو عبارة عن تعليقات على التعليقات وشروح على الشروح مما يعزل المؤرخين كلية عن واقع الحياة؟ وبخاصة أنه في الجامعات الأمريكية الكبرى في الخمسينيات، كان مجموع الذين يتقدمون للدراسات الإنسانية بما فيها التاريخ حوالي ٤٠% من مجموع الطلاب، وفي التسعينيات من هذا القرن انخفضت هذه النسبة من ٤٠% إلى ٢٠%. وتقول الكاتبة أيضا أن معظم من يدرسون التاريخ الآن لا يدرسون التاريخ لأنه تاريخ وإنما يدرسونه لأنه يتناول بعض المشكلات الجديدة الجذابة مثل العلاقات العرقية وغيرها.

وسؤالي الذي أوجهه الآن إلى أساتذة التاريخ هو: ما هو مستقبل الدراسات التاريخية في جامعاتنا؟

حسن السعدي (أستاذ التاريخ بآداب الإسكندرية):

في الحقيقة، عندما صافحت عيناي عنوان الندوة "كيف نقرأ التاريخ؟" وأنا بحكم كوني أنتمي لقسم التاريخ تساءلت عما إذا كنا الآن بحاجة إلى قراءة التاريخ؟ وهذه ليست إجابة تقريرية وإنما زفرة أسى، فكما تفضل الأستاذ محمود أمين العالم: إن من يصنعون حركة التاريخ الآن هم الذين يدمرونه، بل وهناك من اكتفوا بأن يكونوا على هامش التاريخ فيما يمكن أن نطلق عليه التواكلية التاريخية، فيكفي أن جميع شعوب العالم الثالث أمام الطغيان يقولون إن الطاغية لن يفلت من حكم التاريخ ويكتفون بذلك فهي ذات التواكلية التي اتسمت بها الكثير من الأفكار التي نعاني منها، حتى إن من يدمرون التاريخ يتسترون به، وكلنا يعلم كيف قامت الولايات المتحدة الأمريكية بما قامت به وهي ليست من منطلقات السلام عبر العصور الذي تفضل الدكتور جمال حجر بطرحها لكنها خرجت من

رحم فكر أرنولد توينبي بما يتعلق بالأبوة الحضارية والبنوة الحضارية، وما يتعلق بأفكار ما زلنا نعاني منها، ولعل هذا ما جعلني أُستنفر وأطرح أيضا رؤية حول لماذا يقتصر الحديث عن أخلاقيات العلوم على العلم التطبيقي في الاستنساخ وما إلى ذلك، أين نحن من أخلاقيات العلم فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية؟

وفيما يتعلق بقضية الزمن، هل مازلنا أسرى للزمن بمفهومه التقليدي؟ أم لابد أن نضع في اعتبارنا التأثير في حركة التاريخ؟ هل إذا عاشت جماعة ألف سنة أو ألفين، فهل سيُنظر فقط إلى الجانب الزمني؟ أم أن التأثير له دور في هذا الأمر؟ كذلك، ما طرحه الدكتور محمد الكردي فيما يخص قضية الوثيقة والمعلوماتية الخاصة بالمؤرخ، أعتقد أن هناك فرقا بين الأرشفة التاريخية التي كانت ترتبط بكُتَّاب الحوليات والإخباريين وما إلى ذلك وبين المؤرخ الحقيقي الذي أراه هو باعث للروح والحياة في هذه الوثائق، وأعتقد أن هذا البعث لا يتأتى إلا بقضية التاريخ التصوري والتخيلي لأنني استعرت من العلوم التطبيقية ليس فقط Why? ولكن أيضا Why not?، وهذا التساؤل الأخير هو الضمان الحقيقي الآن لكي تجعل للمؤرخ دوره المتميز، وربما تساعدنا على أن نجيب على السؤال عنوان الندوة "كيف نقرأ التاريخ؟".

عبد المحسن كُميل (أستاذ بزراعة الإسكندرية):

ليسمح لي رئيس الجلسة بأن أتحدث بلغة حالي، فأنا بحكم تخصصي البعيد عن التاريخ أكثر عرضة للخطأ، لقد طافت بنا المنصة في مجال واحد وهو حول سؤال كيف يقرأ المؤرخ التاريخ؟ وكنت أتمنى أن نتعلم من هذه الكوكبة كيف يقرأ العامة التاريخ بطريقة مبسطة، لقد عرفنا اليوم صفات المؤرخ كما نعرف مثلا صفات الداعية الإسلامي، فأرجو توضيح هذه النقطة.

عفاف عبد الوهاب:

إن المؤرخ الوحيد الصادق هو الله سبحانه وتعالى عندما تحدث عن الأمم السابقة، فلا يوجد في روايته سبحانه ما يجعلنا لا نصدقه، حتى الطيور وكل شيء خلقه الله جعل فيه الصدق في الكلمات والصدق في التأريخ، ولكنني أسأل الآن وعلى سبيل المثال كيف نقرأ تاريخ يوم ١١ سبتمبر؟ هل بتاريخنا نحن العرب أم بتاريخ من فعلوا بنا ما فعلوا؟

صفاء جعفر (أستاذ مساعد الفلسفة بآداب الإسكندرية ومنسق لجنة الفلسفة والديانات بمكتبة الإسكندرية):

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

من خلال هذا اللقاء الثري أدركت أن هناك لقاء أكيدا لا شك فيه بين الفلسفة والتاريخ، فقد تساءل الدكتور صلاح فضل في المقدمة عن كيفية تغيـــير وجه التاريخ، وأيضا الأستاذ محمود أمين العالم أشار إلى أن الزمن والتاريخ ثمرة كونية الوجود ويختلف الزمان باختلاف التجليات الكونية، كما أشار الدكتور جمال حجر إلى أن غاية التاريخ هي أن يساعد الإنسان على فهم ماهية الوجود، أما الدكتور مصطفى العبادي فقد أكد على أنه لا يمكن أن يتكرر الحدث التاريخي. والعجيب أن هناك فيلسوفا معاصرا وهو هيدجر والذي نجد عنده إجابة على كل هذه الإشارات والتساؤلات وهذا الفيلسوف له وجهة نظر أنطولوجية، فقد أحدث هيدجر ثورة كوبرنيكية فعلية في نظرته لفلسفة التاريخ، حيث بدأ التاريخ عنده من المستقبل ثم التفت بعد ذلك إلى الماضي فالحاضر. فلسفة التاريخ عنده تبدأ بأولوية الإمكان وبأولوية المستقبل على الماضي، وهو بذلك قلب التصور الدارج للتاريخ حيث يبدأ التصور الدارج والمألوف بالحاضر فالماضي، فجعله هيدجر يبدأ بالمستقبل. إذن، فرؤيته للتاريخ تعميق للإمكان وليس للواقع، ويرى هيدجر أن الماضي ندركه لأنه ممكن من حيث الدلالة ولأنه معبر عن إمكانياتنا الصميمة. وبالنسبة للدكتور مصطفى العبادي من حيث فكرة التكرار، فالتكرار بالنسبة لهيدجر يحمل فكرة جديدة وهو أنه فعل إحضار ممكنات الماضي، فموضوع العلم التاريخي عنده يصبح هو إمكانيات الوجود الإنساني التي اختارها والتي تكون قابلة للتكرار من حيث قيمتها الكلية والفريدة.

محمد نور:

لقد أرسلت إلى بعثة عام ١٩٨٢ إلى الولايات المتحدة الأمريكية ولأول مرة أواجه بعض الضباط في الأكاديمية التي كنا ندرس فيها ليس في ميدان القتال ولكن في الميدان الشخصي، حيث وضع الأمريكان شيئا من الصراع بيننا في seminar كان يحضره ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ شخص مختلفين، فهم ما بين يهودي ومصري ويحدث فيه تبادل لما تم عسكريا في كل جهة، وعدت من هذا اللقاء بعد عامين دراسات في الخارج وأنا مصمم على دراسة التاريخ لأنني وجدت أن اليهود دارسين جيدين ومتعلمين تعلمًا جيدًا، ولكنني وجدت أن التاريخ يعاد صياغته، فالكثير من الكتاب اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية يكتبون التاريخ بصياغة حديثة، لذلك انتسبت بعد عودتي إلى كلية الآداب وحصلت على ليسانس الآداب في التاريخ، وأنا أيضا قارئ جيد.

كنا في مؤتمر في بلجيكا في يناير الماضي وفوجئت في حفلة العشاء أن معظم الجالسين معنا يتكلمون اللغة العربية وهم كلهم من كبار الكتاب في العالم، وكان بجواري الدكتور سمير سرحان والذي سمعته يقول "إنهم قادمون

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

إنهم قادمون" حدث هذا حقيقة، وما أراه أن هناك إعادة برمجة للتاريخ وليس إعادة كتابة للتاريخ وقد استحضرني ذلك عندما رأيت رئيس دولة إسرائيل وهو يقف أمام الهرم الأكبر ويقول إن هذا بناه اليهود !

مجدي عجمية (أستاذ بقسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية):

لم يتعرض أي من الأساتذة إلى أصل كلمة "تاريخ" في حين أن هناك آراء كثيرة ترى أن هذه اللفظة ليست عربية الأصل، فمنها ما هو فارسي ومنها ما هو سُرياني ومنها ما هو عبري، فكنت أرجو أن تكون البداية لتوضيح لفظة "تاريخ".

نهلة إبراهيم (أستاذ علم الاجتماع بآداب الإسكندرية):

أتحدث من منظور تخصصي وهو منظور علم الاجتماع، والتاريخ وعلم الاجتماع بينهما علاقة قوية وصداقة عميقة، وأنا شخصيا أحب التاريخ، لقد جاء عنوان الندوة – حتى وإن كان قد تغير عن عنوان تم وضعه قبل ذلك – في وقته. فبالفعل، كيف نقرأ التاريخ كمتخصصين وكيف نقرأ التاريخ كمؤرخين وكيف نقرأ التاريخ كمثقفين أو كقارئين عاديين متلقين للتاريخ. نحن في أمس الحاجة لقراءة التاريخ، وفي أمس الحاجة للتأكد من مدى المصداقية التي كُتب وصيغ بها التاريخ. فمن خلال الأبحاث، التي قمنا بإجرائها، اكتشفنا أن هناك إعادة برمجة للتاريخ ليس فقط على المستوى الخارجي وإنما أيضا على المستوى الداخلي من خلال المناهج التي تكتب في المراحل ما قبل الجامعية في إعادة لبرمجة التاريخ وفي إعادة لحذف الكثير من الأجزاء الهامة من التاريخ بهدف إعادة برمجة الشخصية المصرية حتى تكون شخصية مستكينة متقبلة لأي واقع. وبهذا المعنى، يكون التاريخ والأيديولوجيا والنظرية والفكر قد انتهوا، وما علينا سوى تقبل الفكر الليبرالي الرابح حاليا.

لكن، إذا كنا نتكلم بمنظور التاريخ فهو منظور ألفي، فالتاريخ لا يتحدث من منظور عشرات أو مئات الأعوام، وإنما عندما نتحدث عن إمبراطوريات تكبر وتتضخم ثم تتآكل من الداخل ثم تبدأ في التآكل من الخارج إلى أن تهوي وتبدأ إمبراطوريات أخرى تقاسمها في القوة حتى تستطيع الأخذ بذروة القوة، فنحن في كل ذلك نتحدث عن فترات طويلة للغاية من الزمن. والآن، نحن في مرحلة قوة لإمبراطورية معينة، وهذا ليس معناه نهاية العالم ولا التاريخ ولا الفكر ولا الأيديولوجيا، وإنما معناه أنه علينا أن نعيد قراءة التاريخ كمتخصصين أو كمؤرخين عليهم رسالة وواجب، فعلينا أن نكون واثقين للغاية من كل كلمة كتبت عن التاريخ الماضي خاصة بالنسبة لمصر والوطن العربي والعلاقة بينهم وبين العالم الخارجي، وصيغة هذه العلاقة حتى نستطيع أن نخرج منها بقوانين نستطيع من

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

خلالها أن نتعامل واقعيا ونتعامل أيضا مستقبليا فيما سيأتي وهو ما نحتاجه بشدة لنعرف كيف نتعامل مع القوة الأخرى، وكيف نتعامل مع أنفسنا حتى نستطيع الحفاظ على هويتنا وحتى يكون لدينا كيان خاص بنا.

عبد الرحيم (لم يذكر باقي الاسم) :

لقد لمس الدكتور محمد الكردي جزءًا مهمًّا وحساسًا للغاية وهو التاريخ الأيديولوجي، فأنا أعيش في إنجلترا منذ ثلاثين عامًا، فوجدت أن ثقافة الهولوكوست متغلغلة في التعليم الابتدائي والثانوي وأصبحت مادة رسوب أو نجاح، وأصبحوا يحتفلون بها احتفالا غير عادي في المتاحف بوضع الصور، ويأتي المعمرون الذين عاصروا محارق النازية والذين تخطت أعمارهم الآن الثمانين عاما – ولا أعرف من أين أتوا بقوة الذاكرة هذه – ليتحدثوا عن الهولوكوست، واليوم، في أوروبا، أصبح من يشكك في الهولوكوست يُحاكَم، ناهيك عن تغلغلهم أيضا في العالم العربي، فما هو موقف المؤرخين الأفاضل العرب أو المصريين؟ هل هناك توحيد للوقوف أمام هذه الهجمة الشرسة؟ أيضا، هل سيكتب الأمريكيون تاريخنا أم لا؟

سيد سليمان:

هناك خلط بين مفهوم التأريخ وفن كتابة التاريخ، وكلاهما تقدم في الزمن لأننا قلنا إنه لابد أن يكون هناك فاصل زمني بين التأريخ وكتابة التاريخ، فالمؤرخ شيء والفنان الذي يقرأ ويكتب التاريخ شخص آخر، وقد جاءني هذا الاختلاط من المنصة في حين أن كلاهما ليس واحدا.

البداية الإبستمولوجية التي بدأ بها الأستاذ محمود أمين العالم وضعت بداية قديمة جدا، فالفيزياء هي المثال للعلم وذلك لتوسيع فلسفة العلوم حتى قبلت علومًا أخرى مثل البيـــولوجيا والمتفق عليها كعلم، لكن تم تعديل فلسفة العلوم لقبول علوم أخرى، فقد بدأت بداية حين أخذت الحتمية ثم انتقلت منها إلى الاحتمالية وليست هي العشوائية ولكنها البحث وراء الاحتمالية عن حتمية جديدة، وهناك في الفيزياء اللونية ما يدخل في هذا المظهر.

التاريخ هو جزء أساسي في جميع العلوم، ففي الجيولوجيا ندرس تاريخ الأرض، في حين أن هذا جزء تفسيري وتبريري ولا أحد يستطيع أن يقول كيف نشأت هذه القارة ولا كيف ابتعدت؟ وقد رفضت المنصة التبرير للتاريخ، في حين أنه في علوم مثل الجيولوجيا قائمة على التبرير والتفسير بناء على حقائق مادية، ورفضت المنصة النظرية، والنظرية ليست وجهة نظر من الناحية الإبستمولوجية، لأن النظرية تقوم على حقائق وقوانين تُجمع في بناء

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

متماسك وتتعرض للاختبار، ومن الممكن أن تنهار وتتحول من نظرية خاصة إلى نظرية عامة ثم تعود إلى نظرية خاصة، فالتاريخ جزء أساسي والتبرير موضوعي تماما في كل العلوم.

محمد عبد المجيد:

على الرغم من قلة ما قرأت من تاريخ مصر، فأنا أطلب من حضراتكم بما أنكم أفضل من قرأ التاريخ من بيننا، فأرجو منكم أن تدلونا على خطوات الأجداد التي تم بها إصلاح واقعهم ووضع مصر في مكانتها العظيمة.

السيد هارون (دكتور في المعهد القومي لعلوم البحار والمصايد):

اعذروني لأنني ضيف على التاريخ وأساتذة التاريخ، لذلك فاتجاهي سيكون مبسَّطا جدا من وجهة نظر مهموم بالوطن، فقد كانت هناك مسرحية تقول نكتة وهي "ثم أخذ يفكر ويفكر!" وقد كنا نضحك حين نسمع ذلك، والسؤال هو إلى متى سنظل كمثقفين في الأمة العربية وفي الوطن العربي نفكر ثم نفكر ثم نفكر حتى يهوي السقف فوق رؤوسنا وحتى تعاد ترجمتـــنا وبرمجتـــنا؟ وبدون شك، سوف يُكتب التاريخ سواء أردنا أم لم نرد، فأنا أريد أن أعرف هل نحن أمة في خطر؟ هل نحن شعب في خطر؟ أم كلاهما معا؟

يسري حافظ (مهندس):

بمناسبة وثائقية التاريخ لدي سؤال للأستاذ محمود أمين العالم، فقد قرأت قبل ذلك أنك كنت على اتصال بهنري كورييل في باريس حتى عام ١٩٦٨ فهل هذا صحيح أم لا؟

متحدثة لم تذكر اسمها:

من ضمن ما قاله الدكتور محمد الكردي هو عن نهاية التاريخ، ويذكرني ذلك بمقولة في الأدب تقول إن "الكاتب مات" بما يتيح رخصة بأخذ الكتابات الأدبية وتغيـــيرها حسب رؤية الكاتب الجديد، وإذا كان عنوان الندوة هو "كيف نقرأ التاريخ؟" فأنا أرى أن السؤال الذي يجب أن يُطرح هو "كيف يُقرأ التاريخ؟" وليس كيف يقرأه المؤرخ ولا كيف نبسطه للعامة، ولكن كيف يُستقبل وكيف يُوجه؟

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

محمود أمين العالم:

أبدأ بالحوار مع الأستاذ مصطفى العبادي والذي وجه إليّ نقدين، النقد الأول يتعلق برفضي القول بأن التاريخ له اتجاه واحد، وأنا أريد أن أؤكد هذا تأكيدا حاسما، فلو قلنا إن التاريخ يسير باتجاه واحد فنحن بهذا نقول بنسقية التاريخ وهذا ضد العلم وضد الواقع، فالتاريخ ارتفاع وهبوط ونكوص وتقدم، والوعي الإنساني – الذي هو جزء من التاريخ – هو الذي يوجهنا أحيانا لتوجيهات معينة، ورغم هذا فإن التاريخ زاخر بتعدد التوجهات التي من خلال الوعي والقوانين الموضوعية بإضافة الوعي الذاتي من الممكن أن تُوجه توجها معينا، أما القول بالخطية الواحدة للتاريخ فهذه رؤية أخشى أن تكون دينية أو ميكانيكية للتاريخ.

النقد الثاني كان بخصوص رفضي للمصادفة، أنا رفضت المفهوم السائد للمصادفة أنها لا تقوم على ضرورات فهناك قانون علمي اسمه قانون المصادفة، وقد ضربت مثلا بشخص يسير في الطريق فسقط عليه حجر، ولو سقط الحجر على رأسه فهي مصادفة ولو سقط أمامه فهي مصادفة ولو سقط وراءه فهي مصادفة ولو سقط بجانبه فهي مصادفة، ماذا تعني هذه المصادفة؟ نستطيع أن نحللها أنه إذا سقطت قطعة حجر مثلا من عمارة في مرحلة بنائها وأثّـــر الهواء على مسارها، فجاء سقوطها على رأس رجل كان يسير أسفل هذه العمارة، فهناك عوامل موضوعية حققت أن يتم سقوطها على رأسه في هذه اللحظة مثل سرعة الرجل وغيرها من العوامل الأخرى.

إذن هناك عوامل معينة هي التي حققت سقوط هذا الحجر على رأس هذا الرجل في هذه اللحظة، ونحن نستطيع أن نحدد هذه العوامل الفعلية التي حققت هذا السقوط. ولكن لو لم تسقط على رأس هذا الرجل نتيجة لعوامل أخرى لكانت مصادفة كذلك، والمصادفة هنا في الحالتين هي ثمرة عوامل موضوعية يمكن علميا تحديدها. والمفكر الوحيد الذي يقول إن المصادفة هي فقط أن يقع الحجر على رأس الرجل هو أرسطو، وقد ضرب أرسطو مثلا بالدائن الذي يذهب إلى السوق لقضاء أمر معين فيلتقي بالمدين فيقبض عليه ! فهذه مصادفة ذاتية، وسأضرب مثلا واضحا جدا في علم الاحتمالات: ببساطة عندما ألقي بالزهر عدة مرات فسيأتي بنتائج مختلفة كل مرة فهذه مصادفات جزئية، لكن لو رمينا الزهر مائة مرة مثلا ، فسنجد أن النسبة العامة هي ١ على ٦ مرّة، إذن، فهناك قانون، ليس القانون الميكانيكي النيوتوني، ولكن القانون التكاملي التفاعلي الاحتمالي أو ما يسمى بقانون الأعداد الكبـــيرة.

وبناء على هذا، فهناك ظواهر عديدة تحدث أحيانا ننسبها إلى المصادفة، لكن لو درسنا هذه الظاهرة فسنكتشف أن وراءها قوانين محددة.

ردًّا على الدكتورة صفاء جعفر أقول إن فلسفة هيدجر ضد التاريخ، فأن يُدرس خلال الإنسان مبعِدا كل الظروف المحيطة به فهذه رؤية ذاتية بحتة ونظرة وجودية داخلية ولكن لا نستطيع أن نقول إنها تاريخية.

ردًّا على الأستاذ سيد سليمان والذي تحدث عن أن الفيزياء هي المثال للعلم، أقول إنه لا يستطيع أحد الآن أن يقول ذلك، فقد أصبحت البـــيولوجيا الآن هي الأقرب للعلم من الفيزياء، وبالتالي بدأت الفيزياء الآن تتحول تحولا أقرب إلى البيولوجيا، وبدأ التاريخ كذلك يقترب في مفاهيمه من البيولوجيا. إن التاريخ جزء من جميع العلوم كما تفضلت وهذا صحيح، بل أنا أزعم أن التاريخ يتجسد في كل شيء، فكل شيء له بنية حتى الرمال، فكل حبة رمل لها بنية رغم أن الصحراء تمتلئ برمال مختلفة، لكن كلًّا من نوع الرمال يشكل بنية وبينها وبين الأنواع الأخرى علاقة، كذلك، لكل شيء زمنية وبالتالي تاريخ، والتاريخ هو الذي يحقق هذه العلاقة، بالتالي فكل شيء بنيان مرتبط بأشياء أخرى يتحقق بها التاريخ وبالتالي فهناك حركة وتعدد مختلف نستطيع بالمنهج العقلاني العلمي أن نسيطر على هذه الحركة سواء في المجال الطبيعي مثل سيطرتنا على الكوارث المختلفة أو في العالم الاجتماعي، وكما ذكر أحد المتحدثين أن الأمريكان يستخدمون الكوارث لتحقيق مصالحهم الخاصة.

بخصوص السؤال عن هنري كورييل، فأود أولا أن أقول إنني كنت مسئولا عن الحركة الشيوعية في فترة من الفترات، وأول شيء فعلته مع الدكتور شهدي عطية هو إننا فصلنا كورييل من الحركة الشيوعية، أنا لست ضد اليهود، لكنني ضد أن يكون على رأس الحركة الشيوعية المصرية والمرتبطة بالتراث العربي والإسلامي شخص غريب عن التراث والواقع المصري.

وبخصوص السؤال الخاص بمنعي من وسائل الإعلام، في الحقيقة سبب ذلك إنني مختلف مع التوجه السياسي الرسمي السائد، وفي رأيي أن الإصلاح الأساسي في مصر لن يأتي من أعلى، وإنما سيأتي من قاعدة المجتمع، وعلى الرغم من أن جسدي تعرض لإساءات شتى من مرحلة الرئيس جمال عبد الناصر، إلا أنني أرى أن مرحلة عبد الناصر كانت أرفع وأفضل مرحلة في تاريخ مصر المعاصر رغم ما فيها من نواقص، ولكن كان فيها أيضا بعض مشروعات إنتاجية ووطنية مهمة وجذرية. وعلى هذا الأساس ينبغي بالفعل أن نكافح ونعي الواقع وندرسه تاريخيا

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

وموضوعيا من أجل أن نسيطر عليه ونوجهه لمصلحة المجتمع والتقدم وهذا لن يتم إلا بالعمل القاعدي الشعبي المنظم الواعي الديمقراطي.

جمال حجر:

ردا على الدكتور مجدي عجمية والذي يسأل عن أصل كلمة "تاريخ"، وقد أشرت بسرعة أن الأصل مختلَف فيه، وأن الذين يقولون أنها ليست عربية إنما يستندون إلى أنها لم ترد في القرآن أو السنة ولا حتى في الشعر الجاهلي، وبالتالي يبنون على ذلك تصورا إنها لم تستخدم من قبل، ولكن لها أصول سامية واللغة العربية من اللغات السامية فبالتالي من الممكن أن نجد جذرا من الجذور يدعمها، لكن ما يشاع حاليا هو أن لها أصل فارسي.

ردًّا على السؤال الخاص بإذا ما كنا قد استفدنا بدراسة التاريخ أم لم نستفد، فهذا سؤال من أعقد وأصعب ما يمكن وأعتقد أننا لو قرأنا التاريخ قراءة صحيحة لاستفدنا منه، وأعتقد أننا بصفة عامة نفتقر إلى هذا.

وينقلني ذلك إلى سؤال الدكتور أحمد أبو زيد حول مستقبل الدراسات التاريخية في جامعاتنا، وأنا أضم صوتي إلى صوته بأنني قلق ومنـــزعج لأن المسألة تحتاج إلى كثير من الجهد والطاقة والوقت وإعادة النظر في المناهج الدراسية والميثودولوجي التي يدرس بها التاريخ في الجامعات المصرية وإتاحة الفرصة والأموال وما إلى ذلك من مقومات العملية التعليمية الصحيحة والانفتاح على الذات والانفتاح على الآخر وتمكين المؤرخ من أن يقول كلمته دون أن يتردد فيها.

ردًّا على ما ذكره الدكتور حسن السعدي، فربما لم أستطع أنا توصيل المعلومة الصحيحة عن أن أمريكا ترفع شعار السلام الأمريكي "باكس أمريكانا" على وزن "باكس بريتانيكا" و"باكس رومانا"، لكنني أردت أن أقول أن الشعار المرفوع شيء والمحاولة التي تتم تحت هذا الشعار شيء آخر.

وأود في هذا الجزء أن أرد على سؤال له علاقة به وهو عن سقوط كلمة الرومان وكلمة الإنجليز بسقوط الإمبراطوريتين، أقول إن الكلمة تُحترم، والشخص المحترم تُحترم كلمته، وحينما ضعفت الإمبراطورية ضعفت كلمة الدولة، وحينما ضعفت كلمة الدولة لم يعد أحد يحترم هذه الدولة فبدأ الانهيار من الداخل كما بدأ الانهيار من الخارج نتيجة للعلاقات الخارجية التي لم تفِ فيها الدولة بالتزاماتها، وقد حدث ذلك في روما وفي بريطانيا، وأكبر مثال يمكن أن يُطرح هو موقف بريطانيا، والوعود الثلاثة التي وعدتها لكل الأطراف في أعقاب الحرب العالمية الأولى،

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

فقطعة واحدة من الأرض وُعدت للعرب وللأوروبيين ولليهود تماما كمن يبيع شقة واحدة ثلاث مرات ويحرر لإتمام ذلك ثلاثة عقود ! ففقدت مصداقيتها، وهو ما دفع المسئول البريطاني سان جون فيلبي الذي أكد على هذا التواجد، وهو مستعرب بريطاني كان معنيا بهذا الأمر بشكل مباشر، وبدأ يفضح السياسة البريطانية في الجلسات الخاصة والاجتماعات التي كانت تعقد في الجمعيات البريطانية مثل جمعية آسيا الوسطى وغيرها.

ردًّا على السؤال الخاص بكيف يقرأ العوام التاريخ، أعتقد أن هذا يحتاج إلى محاضرة مماثلة وبالتالي لا تصح الإجابة عليه الآن.

ردًّا على سؤال كيف نقرأ تاريخ ١١ سبتمبر، لقد قلت في سياق ما قلت إن المسافة شرط المعرفة، وإن المسافة بيننا وبين ١١ سبتمبر مازالت لا تسمح بالرؤية، وطالما أن الرؤية مازالت ضبابية وأن الوثائق التي تحدث عنها الزملاء غير متاحة الآن وأن المتاح هو ما يسمح به الأمريكان أنفسهم، فالحقيقة لا تزال غائبة في معظمها وبالتالي فتاريخ ١١ سبتمبر لم يُكتب بعد ولن يكتب الآن، إذ تبقى الحقيقة دائما مجتزأة إلى أن تكتمل في يوم من الأيام، وقد قلت في سياق كلامي إن اليقين المطلق غير وارد.

وردًّا على سؤال إذا ما كانت أمريكا ستعيد صياغة ذلك، أقول إنهم يعملون على ذلك بالفعل الآن، المهم أن نملأ الفراغ حتى لا يملأونه هم أنفسهم.

محمد الكردي:

لقد أثيرت مسائل كثيرة، بالنسبة لمفهوم الزمان والتاريخ فقد قلت إن التاريخ مرتبط برؤية، وأن الأحداث التاريخية هي الشيء الثابت، وإنما إعادة الترتيب والتوزيع هي التي تختلف وفقًا لرؤية المؤرخ والمنهج التاريخي، وهو ما يفسر أيضا مشاكل إعادة كتابة التاريخ، وأتذكر كلمة عبد الرحمن الرافعي في بداية الثورة، فقد دفعت الثورة بصغار المؤرخين أن يطلبوا منه الحضور لإعادة كتابة التاريخ، فرد عليهم بقصاصة ورقية قال فيها: "لقد كُتب التاريخ .. ألا تعلمون؟!" وطبعا هذا رأي، فكأن التاريخ قد انتهت كتابته، لكن التاريخ لا تنتهي كتابته، لأنه ليست هناك فكرة أو رؤية موضوعية للتاريخ، فلو تخيلنا مثلا انتصار علي بن أبي طالب على معاوية بن أبي سفيان، لكُتب التاريخ بطريقة أخرى، ففكرة الاحتمال وأن هذا وارد وهي فكرة موجودة، لأن الضرورة التي

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

تحدث عنها لا تخص الإنسان، وإنما تخص الطبيعة وتخص القوانين الطبيعية، بل إن القوانين الطبيعية أيضا تفسَّر تفسيرات احتمالية مع قابلية التكذيب والتي تحدث عنها كارل بوبر.

وبخصوص فكرة الأستاذ محمود أمين العالم والتي حاول أن ينتقدها عند الدكتور مصطفى العبادي، فهي فكرة أن التاريخ يسير في خط ولا يمكن أن يرجع إلى الوراء، وأنا أقول إن التاريخ فعلا يأخذ مسارًا لكن الرجوع أحيانا لا يكون في نفس المسار، فليس هناك رجوعًا حقيقيًّا، ولكن هذه الفكرة موجودة، وفي التاريخ الإسلامي كله يعتقدون أنه من السهولة بمكان أن نقفز من الحاضر إلى الماضي، الماضي الفضي أو الماضي الذهبي وكأن التراكم الزمني ليس له وجود، وهذه مشكلة ترتبط بفكرة الجبرية، فللأسف، يسيطر علينا في الشرق المناخ الفكري الجبري على الرغم من محاولاتنا للتحرر.

وهناك الرؤية الدورية، فابن خلدون مثلا لا يقرأ التاريخ بالمعنى الحديث، وإنما يقرأه في صورة تطور الإنسان الذي يكبر وينضج ويشيخ ثم يموت، ولكن هذا المفهوم ينتهي مع نهاية المجتمعات الزراعية عندما تكون قوى الإنتاج متوازية والنواحي العسكرية متوازية، فأي دولة تكون في حالة البداوة أي في حالة القوة فهي تستطيع أن تدمر دولة متحضرة لأنها بدأت تدخل في مرحلة ما أسميه الرخاوة، إنما في العصر الصناعي يتم التقدم بطريقة تراكمية، فمن الصعب على دولة دخلت في طور الصناعة وتقدمت أن تتقهقر إلا إذا كان هناك أسباب هيكلية كما حدث بالنسبة للاتحاد السوفيتي الذي سقط.

وعن قراءة التاريخ، فيمكننا أن نقرأ التاريخ بوسائل متعددة، فمثلا القراءة الشعبية موجودة ولكن عبر الأسطورة وعبر الحكاية الشعبية، فالحكاية الشعبية تعيد بناء التاريخ من حيث الأسطورة والتي تقوم على الرمز وعلى ما نتمنى حدوثه وما نرمز له لكي يكون، فحين لا يحدث هذا في الواقع فتكون الأسطورة للتبرير. وقد تحدث أحد الحاضرين عن التبرير وأنا أقول إن التاريخ ليس تبريرًا، فالتبرير موقف الانهزامي وهو موقف التابع، والتاريخ تفسير وليس تبريرًا.

بالنسبة للتاريخ والتواريخ الأخرى، فبالطبع هناك تاريخ الفكر وتاريخ العلم وتاريخ الأدب، وليس معنى التاريخ بالمعنى العام، فكل تاريخ من هؤلاء لابد وأن تكون له خصوصية وإلا ضاعت قيمته.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

وفي ضوء ما قلنا، فإذا أعادت إسرائيل كتابة التاريخ فذلك من حقها، ونحن أيضا من حقنا أن نرد، لأن كل إنسان يجد نفسه في موقع القوة يحاول إعادة تفسير الحوادث من منظوره هو، إذن، فالإجابة عن التساؤل الذي يقول أين نقف؟ وعلى أية منصة؟ هو الذي يحدد تفسيرنا للتاريخ.

مصطفى العبادي:

أستأذن في الرد على الأستاذ محمود أمين العالم وهو أنه على الرغم من أن حركة التاريخ صعودًا وهبوطًا، إلا أنه هناك حركة، فلا عودة إطلاقا، والمصادفة وقانون الاحتمالات هو قانون رياضي، فنحن في التاريخ لا ندرس الاحتمالات وإنما ندرس ما وقع، فعنصر التاريخ هو ما حدث وليس ما يمكن أن يحدث.

ذكر الدكتور أحمد أبو زيد أنه في أحد الكتب قرأ أن البعض في أمريكا يقرأ التاريخ من الحاضر إلى الماضي، في الواقع، إذا أخذنا حادثة الآن ورددها إلى أصولها فهذا منهج تاريخي سليم للغاية، فنحن نعود إلى الماضي ونبدأ من الماضي لنصل إلى الحاضر، فنحن يثير انتباهنا ما يحدث الآن فنذهب للبحث عن أصوله وجذوره.

ردًّا على الدكتورة صفاء جعفر أقول إنني لا أستطيع أن أجاريك في هيدجر، وعلى الرغم من إلمامي المتوسط بهيدجر، فلست من المعجبين بفكرة ابتدائه من المستقبل لأن المستقبل غيب، وفي التاريخ لا يمكن أن نعرف ما سيحدث غدًا، من الممكن أن نتوقع احتماليًّا، لكن لا نعرف يقينًا ما سيحدث.

بخصوص السؤال حول كيف يقرأ العوام التاريخ؟ سأرد بعبارة واحدة تساعدنا على فهم الواقع وهي إنه إذا كنا نريد أو نتطلع إلى أن نُعلِّم التاريخ فعلينا أن نتجنب إغراء تقديس الماضي أو تمجيده، إذا نجحنا في هذا الموقف، أظننا سنقترب من الحقيقة.